(الكشف عن مناهج التغيير والبناء الحضاري من خلال السيرة النبوية).

بحث مقدم للمؤتمر العالمي الثاني للباحثين في السيرة النبوية

(آفاق في خدمة السيرة النبوية).

والذي سينعقد بمدينة فاس 27– 28– 29 محرم 1436– الموافق 20–21–22 نوفمبر 2014م

إعداد الدكتور / أحمد زايد

الأستاذ المشارك بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية الشريعة - جامعة قطر

2014م

المقدمة

قال الله تعالى في محكم التنزيل :" لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"[1] و"الأسوة" لفظ عربي مثل "القدوة" وزنا ومعنى، ويقصد به المثال الصالح للاقتداء به،والآية حاكمة بأن المثل الأعلى في الاقتداء هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير أن قضية التأسي اعتورتها تصورات عديدة، أكثرها شيوعا الاقتداء به صلى الله عليه وسلم في التعبدات والشعائر والهدي الظاهر، مع أن مفهوم التأسي عام شامل في كل فعل وتصرف أتاه النبي صلى الله عليه وسلم عدا ما اختص به شرعا، فالفرد والجماعة والمؤسسة والأمة كل هؤلاء ملزمون باتخاذه قدوة كلٌ في تخصصه وعلى مستوى واجباته وأعماله ومسئولياته.

إنه صلى الله عليه وسلم أسوة للفرد حاكما كان أم محكوما، وعمله أسوة ومثال صالح في بناء الجماعة وتشكيل الأمة في سلمها وحربها، في قوتها وضعفها، في كل تطورات حياتها.

قدوة في تربية الأفراد لكل مربي، وقدوة لكل أب في تحمل وإدارة حياته الزوجية، وقدوة لكل معلم وسياسي وعسكري واقتصادي وعابد ومفكر وداعية واجتماعي، لأن الله تعالى هيأه لذلك فأعلى شانه ورباه وحسن خلقه وقال له:"وإنك لعلى خلق عظيم"[2] .

ولا تزال أمتنا في حاجة ماسة لا ستلهام خطوات نهوضها وعناصر فاعليتها من خلال النظر في النهضة والتغيير والبناء الحضاري الهائل الذي أحدثته دعوة الإسلام بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم في مشروع حضاري كبير، نحتاج إلى ذلك في ظل التغيرات العالمية التي توحي تحولاتها بأن المستقبل لهذا الدين، الأمة مطالبة اليوم أن تعيد النظر والتأمل في تراثها العظيم وبخاصة في ذلكم التطبيق الحكيم المعصوم الذي قام به النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا أمر يحتاج إلى جهود متضافرة تقوم بها مؤسسات علمية ومراكز بحثية لتكشف اللثام عن حقائق في الحركة والبناء، وخطط في الحركة والتغيير لا تزال الأمة في حاجة إلى اتخاذها منهاجا قويما بعد طول تخبط بين مناهج البشر شرقيها وغربيها.

وفي هذا السياق يأتي بحثنا هذا الذي يدور حول المحور الثالث من المؤتمر وهو : أفق في خدمة السيرة، يتناول ثلاثة آفاق هي أفق التربية وأفق الاجتماع والسياسة وأفق منهاج الإصلاح).

وقد جعلت عنوانه " (<u>الكشف عن مناهج التغيير والبناء الحضاري من خلال السيرة النبوية).</u>

وهو محاولة علمية منهجية في الكشف عن مناهج التغيير والبناء الحضاري من خلال وقائع وأحداث السيرة النبوية، في المجالات المتعددة التربوية والإصلاحية والسياسية وغيرها، وكيف تستفيد منها الأمة في حركتها المعاصرة لترشيد

([1])سورة الأحزاب ، الآية (21).

[2]- سورة القلم ، الآية (5).

سعيها في النهوض الحضاري وفق منظومة رائدها الوحي الشريف الذي تجلت آفاقه في الحقبة النبوية في صورة تطبيقات واقعية شملت بناء الفرد والجماعة والأمة والحضارة.

وبقصد الباحث من خلاله أبراز قواعد وأسس اكتشاف تلك المناهج النبوية، مقارنا بين ذلك وبين المناهج المنحرفة في تناول السيرة وتحليلها وأبرزها المنهج الاستشراقي والمنهج القومي والمنهج العلماني وغير ذلك، وبيان مدى الجناية التي ارتكبتها تلك المناهج في تناول السيرة النبوية.

والبحث يؤسس جملة من العناصر والموازين التي يرى الباحث ضرورة توفرها فى شخصية الباحثين كصحة المنطلق (المنطلق العقدي) و(شمول الفهم للإسلام وفلسفته في البناء) ثم (سلامة الأدوات في الجمع والتحليل) ثم (الحركية الإسلامية الواقعية) .

والله تعالى أسال أن يتقبله عملا صالحا، وأن يكتب له النفع في الأرض

والحمد لله رب العالمين.

الباحث: د/ أحمد زايد

كلية الشريعة – جامعة قطر

azayd1969@gmail.com

المبحث الأول: دراسة السيرة النبوية لماذا وكيف؟

نقدم هذا المبحث على غيره لأمرين:

الأول : لبيان أهمية السيرة كمصدر من مصادر المعرفة والبناء الحضاري.

الثاني: لمعرفة المناهج المتعددة في دراسة السيرة وبيان أولاها بالقبول.

ويأتي ذلك في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: لماذا دراسة السيرة النبوية؟

المطلب الثاني: دراسة السيرة بين مناهج مختلفة؟

المطلب الثالث : المنهج المنشود في دراسة السيرة النبوية:

المطلب الأول: لماذا دراسة السيرة النبوية؟

سؤال ذو بال :لماذا ندرس السيرة؟ هل استمتاعا بحوادث وقصص تجلت في تضاعيفها عبقريات وبطولات؟ أم وقوفا على أيام وبقاع وشخصيات ؟ أم سيرا مع حوادث التاريخ المتاعقبة قبل الحقبة النبوية وبعدها ؟ أم ماذا؟

لماذا يدرس المسلمون السيرة النبوية؟

سؤال أختصر جوابه إجمالا ثم آتي على تفاصيله.

أما الجواب إجمالا: فبلغة معلمي الرياضيات "السيرة هي المثال المحلول للقرآن الكريم"، حيث جاء القرآن الكريم منهاج إصلاح وتغيير عالمي، كان في حاجة إلى تطبيق يكون نموذجا للمؤمنين بالقرآن يعلمهم كيف يعيشون به مدى الدهور، فكانت السيرة هي ذلك النموذج التطبيقي.

وأما تفصيلا: فنحن ندرس السيرة لأمور عدة منها:

أولا: فهم الإسلام من خلال مصادره الصحيحة

معلوم أن القرآن الكريم والسنة المطهرة هما مصدرا معرفة الإسلام، ولا تكتمل معرفة السنة إلا بمعرفة السيرة التي تشكل جزءا كبيرا من سنته صلى الله عليه وسلم القولية والعملية، قال الله تعالى :"وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم"(1). وبهذا البيان العملي الشامل لكل نواحي الحياة يتحقق فهم الإسلام عقيدة وشريعة، عبادة وأخلاقا، وتتدرب الأمة من خلال "المثال المحلول" التطبيقي على كيفيات تحقيق الإسلام في الحياة وفق هذا النموذج الصافي.

ثانيا: التعرف على شخصية النبي القدوة صلى الله عليه وسلم لتحقيق المحبة والاقتداء

فالسيرة تتناول شخصية النبي صلى الله عليه وسلم بتفصيل لا يتوفر لأي زعيم أو كبير قوم، تتناولها من مولده حتى وفاته، داخل بيته ومع أهله وخارجه، وهذا التفصيل نتعرف من خلاله على مواقع الاقتداء الصحيح وموجبات المحبة

[1]- سورة النحل آية (44).

الكاملة، وهذا مطلب شرعي ومقصد إيماني قال الله تعالى:" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا"(1).

إن الجهل أو التقصير في دراسة السيرة وضعف تدريسها والوقوف مع حوادثها يبعد الأمة كثيرا عن معنى الاقتداء والمحبة للنبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثا: الإعانة على فهم القرآن الكريم

ففهم القرآن مقصود شرعي كلفته الأمة، وقد اشتمل القرآن الكريم على الكثير من حوادث السيرة النبوية، سواء ما يختص بشخصه الشريف صلى الله عليه وسلم أم ما يتعلق بصحابته الكرام، أم بزوجاته وأهل بيته، وما يتعلق بغزواته وجهاده وغير ذلك، فعندما نقرأ السيرة الشريفة ونقف مع ماصح منها نتأمل ونفكر نفهم القرآن المتعلق بذلك، والعكس صحيح حيث يزداد فهمنا للسيرة بفهمنا القرآن الكريم، ومعرفة أسباب نزوله المتعلقة بحوادث السيرة.

رابعا: ترسيخ اليقين في قلوب المؤمنين

وذلك لأن السيرة النبوية بما تجلى فيها من دلائل النبوة وآدابها، وبما برز خلالها من معجزات للنبي صلى الله عليه وسلم وكرامات لأصحابه، وبما نستخلصه من حوادثها من سنن إلهية ونواميس ربانية نزداد يقينا بصحة هذا الدين وبصدق هذه النبوة.

وقد رأينا كيف لانت قلوب الكفار فدخلوا في دين الله أفواجا لما وقفوا على هذه الدلائل الربانية على نبوته صلى الله عليه وسلم، ولما عاينوا أخلاقه الرفيعة وآدابه العالية، فكان ذلك تثبيتا لقلوب المؤمنين ودعوة صادقة تفتح قلوب الكفار وعقولهم للدخول في هذا الدين.

خامسا: معرفة منهج بناء الأمة والسير بالإسلام في العالمين

وهذا هو الهدف الأكبر من رسالته صلى الله عليه وسلم، وهو هدف كبير وشاق لأنه يقتضي بناء جيل التغيير المتفرد في عقيدته وفهمه وعمله وحركته، كما يقتضي إدارة صراع طويل مع المخالفين والأعداء، ومعرفة كيف تقوم الأمة،

[1]- سورة الأحزاب آية(21).

كيف تتعامل مع غيرها من المسالمين والمحاربين، كيف تدير حركتها في العالم وسط الأمم، كل ذلك قام به محمد صلى الله عليه وسلم بين الأمم فربى الجيل القرآني الفريد وأقام الأمة الوسط، وحرك أنظار أمته نحو العالمية بدينها الحنيف، ولم يكن ذلك بالأمر الميسور وإنما تطلب كفاحا وتضحيات وفق منهجية إيمانية وعلمية وساسية وتربوية واجتماعية وعسكرية واقتصادية وإعلامية متكاملة، والأمة في أمس الحاجة اليوم لمعرفة طبيعة الحركية الإسلامية الأولى كيف قامت وحافظت على كينونتها من الذوبان أو السقوط.

المطلب الثاني: دراسة السيرة بين مناهج مختلفة

إذا كانت السيرة النبوية صورة التطبيق الحضاري الكامل للإسلام كما ذكرنا آنفا، فإن كثيرا من المناهج التي درست بها السيرة النبوية لم تبرز هذه الحقيقة ولا تظهر تلك الصورة، كما تعددت زاوية النظر إلى السيرة، فخرجت دراسات ومصنفات تناولت السيرة من زاوية معينة أُغفلت معها الرؤية الكلية لفلسفة السيرة ومقاصدها الكبرى التي بها تشكلت أمة بكل مقوماتها، وفي هذه المطلب نتناول بعض تلك المناهج ونعلق عليها لنخرج من بحثنا بما ينبغي أن تكون عليه دراسة السيرة في بحوثنا وتصانيفنا العلمية

أولا : منهج التأريخ الحولي: وهو منهج متبع لدى كثير من الأقدمين ممن صنف في السيرة النبوية، حيث تسجل فيه أحداث كل سنة بالترتيب الزمني سردا، وقد اشتهر جمع من العلماء بهذه المنهج أمثال أبي جعفر الطبري في "تاريخ الأمم والملوك"، وأبو الحسن علي بن الحسين المسعودي في "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، وعز الدين بن الأثير الجزي في "الكامل"، والحافظ الجليل شمس الدين الذهبي في "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"، والحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية"، وغيرهم الكثير، ويأخذ الدكتور عماد الدين خليل على هذا المنهج أنه" يمارس تقطيعا للوقائع الأساسية، واختراقا لنسيجها بوقائع أخرى تتحرك في سياق مغاير، كأن يتم الحديث في السّنة أو الحولية الواحدة عن الصراع ضد الوثنية واليهود والبيزنطيين والمنافقين، جنبا إلى جنب مع المعطيات التشريعية أو الدعوية أو التعبدية أو السلوكية...الخ"(1) .

ويضاف إلى ما لاحظه الدكتور خليل وهو"غياب المنهج النقدي في كثير من تلك المصنفات، وقد ترك ذلك أثرا سلبيا وهو أن كان أصحابه "يسلمون بالغث والسمين، ما يمكن قبوله وما لا يمكن.. الأمر الذي أضاف إلى وقائع السيرة الأساسية أجساما غريبة، وقادها إلى نوع من التضخّم على حساب بنيتها الأصيلة المتّفق عليها"(2).

---

(1) السيرة النبوية مشروعا حضاريا ، عماد الدين خليل (ص1) مقال منشور بمجلة حراء – العدد 3 – إبريل – يونيو 2006م . ومجلة حراء مجلة علمية ثقافية فكرية تصدر كل شهرين عن شركة إيشك للنشر في إسطنبول بتركيا.

(2)

.ثانيا: منهج المحدثين:

"يقصد بالمحدِّثين الرواة الذين نقلوا الأحاديث النبوية بمتونها وأسانيدها خلال القرون الإسلامية الأولى حيث كانت الرواية والحفظ تحتل المقام الأول رغم ظهور الكتابة منذ عصر السيرة النبوية وتوسع التدوين خلال القرنين الأولين وظهور المصنفات الحديثية المرتبة على الأسانيد والموضوعات خلال القرن الثاني والثالث للهجرة..

وقد صاغ المحدثون قواعد نقدية دقيقة ضمن منهج واسع عرف بمصطلح الحديث، وبذلك سبقوا الآخرين في التنظير والتقعيد لكيفية التفاعل مع الروايات بفحصها وتطبيق قواعدهم عليها لغرض الحكم عليها قبولاً ورداً، مما أدى إلى اكتمال معلوماتهم عن الرواة والتدقيق في أحوالهم من حيث الصدق والورع والالتزام الديني، وظهرت مكتبة ضخمة في علم الرجال، أثرت في فن الترجمة للأعلام في سائر العلوم التي ظهرت في الإسلام. وأهم المحدثين الذين عنوا بأخبار السيرة النبوية هم أبان بن عثمان، وعروة بن الزبير بن العوام، وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وموسى بن عقبة، ومعمر بن راشد، ومحمد بن إسحاق، وسليمان بن طرخان التيمي، والوليد بن مسلم الدمشقي، ومحمد بن عائذ الدمشقي، وأبو معشر السندي، وهؤلاء جميعاً إما ثقات أو صدوقون عند أئمة النقاد — ماعدا أبا معشر السندي فإنه بصير بالمغازي ضعيف بالحديث — وقد قبلت مروياتهم إما بإطلاق وإما بقيود كما في مراسيل الزهري التي عدت ضعيفة، وكما في عنعنة محمد بن إسحاق والوليد بن مسلم، فإنهما مدلسان، وبذلك يمكن القول بأن السيرة النبوية حظيت بنخبة من أهل العلم دونت أخبارها وصنفتها؛ وبذلك تم حفظها وأمكن الثقة بمعلوماتها، وهذا مما هيأه الله تعالى لسيرة نبيه صلى الله عليه وسلم"(1)

وعلى الرغم من موثوقية النصوص التي أوردها هؤلاء وفق قواعد الرواية إلا أن هناك ملحوظة هامة تعد مأخذا علي هذا المنهج هي (التجزيء) حيث تروى الحوادث مقطعة مجزأة، الأمر الذي يحول دون إخراج السيرة بصورة متكاملة مترابطة تعطي تصورا كليا شاملا عن الحياة الإسلامية الأولى بكل مشتملاتها وأركانها، غير أن هؤلاء الأعلام بمنهجهم الدقيق كفونا البحث عن الصحة والموثوقية ويسروا على الباحثين في السيرة والناظرين فيها مؤنة هذا العمل العظيم، وما علينا إلا أن نضع هذه النصوص المحققة في صورة متكاملة ونقوم بعملية فهم وتحليل واستنباط قوانين النهوض والتغيير الحضاري.

([1]) مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين د/ أكرم ضياء العمري (ص1) كتاب الأكتروني على الشبكة العنكبوتية –الإنترنت.

ثانيا : منهج الدراسات التخصصية:

وهي دراسات موضوعية مستنبطة من حوادث السيرة طولها وعرضها، فقد ظهرت دراسات متخصصة في بيان الجانب الحركي من خلال السيرة كما فعل منير الغضبان – رحمه الله – في "المنهج الحركي للسيرة، تناول فيه الجوانب التنظيمية والحركية للدعوة ودعاتها في المواقف المختلفة من خلال السيرة، وكما فعل كذلك – رحمه الله – في "التربية القيادية" و"التربية الجهادية" من خلال السيرة، وكما قدم الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله تعالى– رؤية دعوية متكاملة لإبراز النظرية الدعوية من السيرة في كتابة الماتع "فقه السيرة" والبعض تناول الكتابة في موضوع "أمهات المؤمنين" كما فعل محمد بن الحسن بن زبالة في مصنفه "أزواج النبي صلى الله عليه وسلم" وعائشة بنت الشاطيء في "تراجم سيدات بيت النبوة"، وتناول البعض جوانب الحذر والحيطة من خلال السيرة النبوية كما فعل د إبراهيم علي محمد أحمد، وهكذا.

وهذا منهج مفيد في إظهار جوانب الصورة الحضارية للإسلام من خلال تلك الدراسات الموضوعية للسيرة، والأمة بحاجة إلى مؤسسات ومراكز تقدم مشروعات حضارية ونهضوية من خلال السيرة، والجهود الفردية في مثل هذه الأعمال يعتورها النقصان والتأخر، ولذا لا بد أن يتوافر على مثل هذا جماعة وفرق عمل من مختصين في كل الفنون الدينية والدنيوية، مع اعتماد الاستيثاق من صحة النصوص وفق قواعد المحدثين بحيث تتكامل المناهج البحثية وزوايا النظر إلى السيرة.

ثالثا : منهج المستشرقين

من اخطر وأسوأ المناهج التي تناولت السيرة النبوية منهج المستشرقين، الذين حاول نسف فكرة النبوة والوحي، وهدم أركان الدين بالتشكيك المحموم في تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم، والتصوير الخبيث لمجريات الأحداث والوقائع في السيرة وحملها على محامل غير مرادة منها، ويمكننا القول بأن منهج المستشرقين في كتابة السيرة النبوية وتناولها يتسم بالآتي :

1. التحريف والتلفيق والطعن.
2. التقول والانحراف في التفسير والتحليل.

3. البعد عن العلمية والموضوعية، واعتماد غير المعتمد من المصادر.

4. واستعمال مصطلحات كنسية أو دينية غير إسلامية لتقريب المعاني إلى المسيحيين أو اليهود، وما يحمله ذلك من تشويه للحقيقة الإسلامية التي لا يعبر عنها إلا بالمصطلح الإسلامي .

5. اختلاف المنطلق بين هؤلاء وبين كتاب السيرة من المسلمين.

6. الفهم الخاطيء الناتج عن عدم فهم اللغة العربية .

7. الجهل بمناهج التفسير والاستنباط والبحث في الفكر الإسلامي، فهم يجهلون المنهج الأصولي ومناهج المحدثين والمفسرين الأمر الذي جعلهم يخبطون خبط عشواء.

8. رفض المقررات التاريخية والتجني عليها.

9. الاعتداء العلمي على المقدسات الإسلامية.

10. اعتماد المسلمات المادية والوضوعية في تفسير النصوص وفهمها.

ولنضرب لذلك مثلا :

المستشرق الفرنسي (م.سفاري) كتب كتابا بعنوان:"مختصر حياة محمد" لفق فيه أحداث السيرة ، وأراد من خلال ذلك تصوير النبى محمد صلى الله عليه وسلم بأنه ذكي عبقري وليس نبيا مرسلا، وأن القرآن من نظمه وصناعته فبعد أن وصف حال الشرق وما وقع فيه للكنيسة الشرقية من انقسام وما وقع للعرب من نسيان فكرة التوحيد، وما وقع كذلك للفرس يقول (م. سفاري):" هكذا كان حال الشرق حين فكر محمد في إنشاء الإسلام، وجمع العرب المنقسمين تحت لواء قانون واحد، فقد أعطى موسى بني إسرائيل التوراة، أما مخلص الناس فقد منحهم الإنجيل، فأراد محمد أن يظهر أمام أمته وبيده كتاب إلهي، فعكف على نظم القرآن، ونظرا لعلمه بملكة العرب البيانية فقد حرص

على أن يستميلهم بجمال الأسلوب ويدهشهم بروعة الصور بدلا من أن يقنعهم بالحجة والبرهان"[1] . هكذا يفسر (سفاري) الوحي الإلهي على أنه انتاج بشري نظمه محمد صلى الله عليه وسلم بأسلوب بياني مؤثر ليجذب الناس نحوه.

وأكثر المستشرقين يغرقون في وحل التحريف وسوء التأويل على غرار مفتريات (سفاري) في كتابه هذا.

ولا شك أن منهج المستشرقين خطر يهدد مصادر الإسلام، وقد تأثر به من تأثر من المسلمين خواصهم وعوامهم الأمر الذي يستدعي مقاومة هذا المنهج المغرض.

رابعا : منهج تلاميذ المستشرقين من العلمانيين والقوميين والماركسيين وأضرابهم في المجتمعات الإسلامية

وهذا المنهج لاختلاف منطلق أصحابه عن المسلمين الخلص في دراسة السيرة النبوية جاء هادما للمقومات الأسلامية الأساسية، حيث أخذ أصحاب هذا المنهج على تعدد اطيافهم وتوجهاتهم في هدم حقائق الوحي والنبوة والغيب من خلال تأولات فاسدة وتحكمات ذاتية، وأهملوا في نظرتهم للسيرة الجانب الإلهي، كما غلبت على دراساتهم ما أسموه "المنهج العلمي" وهو منهج مادي لا يصلح وحده في استيعاب وتفسير قضية مثل "السيرة "بأبعادها الغيبية والروحية والتشريعية، فهم من خلال هذا المنهج المدَّعى يتحكمون بأهوائهم وعقولهم القاصرة في مسائل عمادها الوحي الذي يأتي بمحارات العقول لا بمحالاتها كما قال ابن تيمية – رحمه الله- .

وقد انتُقد محمد حسين هيكل في بعض توجهاته في تفسير بعض حوادث السيرة، كما انتقد محمد فريد وجدي مع أن هؤلاء أقوم قيلا وأهدى سبيلا من العلمانيين والقوميين والماركسيين، وإذا كان هؤلاء الأعلام قد انتقدوا فما بال الخلص من تلامذة المستشرقين من الماركسيين والعلمانيين والقوميين الذين نرى أعمالهم طاعنة في ثوابت الإسلام كما يقول بعض الباحثين عنهم:" إنك لترا هم يمجدون شخص محمد صلى الله عليه وسلم ، وينوهون بعظمته وصفاته الحميدة بعيدا عن كل ما قد ينبه القارىء الى شيء من معانى النبوة أو الوحى فى حياته ، وبعيدا عن الإهتمام بالأسانيد و الروايات التى قد يضطرهم الأخذ بها الى اليقين بأحداث ووقائع ليس من صالحهم

([1]) السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون المستشرق ترجمة محمد عبد العظيم علي ، نقد وتحقيق وتصويب/ عبد المتعال الجبري (الاسكندرية : دار الدعوة ، ط1414،1هـ -1994م)ص 45.

إعتمادها أو الإهتمام بها . وهكذا وجد أبطال هذه المدرسة الجديدة ، فى اتباع المذهب الذاتى فى كتابة التاريخ ، الميدان الفسيح الذى يمكنهم من نبذ كل ما لا يعجبهم من حقائق السيرة النبوية مهما جاءت مدعومة بدلائل العلم اليقين ، متخذين من ميولهم النفسية ، ورغباتهم الشخصية و أهدافهم البعيدة ، حاكما مطلقا على حقائق التاريخ وتحليل ما وراءه من العوامل ، وحكما مطلقا لقبول ما ينبغى قبوله ورفض ما يجب رفضه . لقد رأينا- مثلا - أن كل خارقة مما قد جاء به متواتر السنة ، وربما صريح القرآن ، تؤول ولو بتكلف وتمحل ، بما يعيدها الى الوفاق المألوف ، وبما يجعلها تنسجم مع الغرض المطلوب .

فطير الأبابيل ، يؤول - على الرغم من أنف الآية الصريحة الواضحة - بداء الجدرى، والإسراء الذى جاء به صريح القرآن، يحمل على سياحة الروح وعالم الرؤى، و الملائكة الذين أمد الله بهم المسلمين فى غزوة بدر يؤولون بالدعم المعنوى الذى أكرمهم الله به !" (1).

ومنهم من يفسر الدعوة الإسلامية وحركة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأنها بعباراتهم ثورة يسار على يمين، وحراك للفقراء ضد الأغنياء أملاه طلب الرزق وحب التوسع والمال، حتى إن بعضهم اعتبر سيدنا أبا ذر" رضي الله عنه محامي الفقراء.

وبعضهم يفسر الفتوحات الإسلامية والغزوات النبوية على أنها احتلال وتوسع هدفه السيطرة على الشعوب وحب التحكم فيهم وفي مقدراتهم، وهكذا.

ومما يؤسف له أن كثيرا من هؤلاء يتبوءون مراكز علمية وثقافية كثيرة في البلاد الإسلامية وربما كان صوتهم أعلى من صوت الراسخين من أهل العلم المستقيمين على المنهاج الحق.

([1]) فقه السيرة، محمد سعيد البوطي (ص 10- 11) – دمشق ،ط السابعة، 1977م

المطلب الثالث : المنهج المنشود في دراسة السيرة النبوية:

بعد التعرض لبعض المناهج في تناول السيرة النبوية، يتأكد ليدنا أن دراسة السيرة والتعامل معها كمصدر علمي تاريخي شرعي للفكر والمعرفة الإسلامية، لا تزال في حاجة إلى نهوض في عملية "المنهج"، ولكي نستخرج منهجا واضحا وفعالا من خلال السيرة النبوية في عملية التغيير والبناء الحضاري للأمة في واقعنا المعاصر لابد أولا من توافر جملة من القواعد والضوابط والأصول المنهجية بعضها في الباحث، وبعضها الآخر في منهجية البحث نجملها فيما يلي:

أولا: فهم طبيعة الإسلام الشامل الذي مثلته السيرة النبوية تطبيقا

إن عدد آيات القرآن الكريم (6236) آية، وعدد أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم عشرات الآلاف من الأحاديث، و ومعها من المواقف العملية في حياته صلى الله عليه وسلم ما لا يحصى عددا، هذا الكم الهائل من النصوص والمواقف لا يمكن أبدا أن يكون منصبا حول بعض الممارسات الشعائرية التعبدية، وإنما هو منهاج حياة للفرد والأسرة والجماعة والأمة بل للبشرية جمعاء، ولذلك قال الشيخ حسن البنا معبرا عن هذا الشمول:" الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء"(1).

إن إدراك هذا المعنى الكبير العميق الذي يؤخذ من طول النصوص الشرعية وعرضها يفسر لنا طبيعة حركة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أول لحظة في الرسالة إلى آخر لحظة في حياته، فهو يتحرك لإقامة الحياة الإسلامية "بدءا بالفرد ومرورا بالدولة وانتهاء بالحضارة" كما يقول عماد الدين خليل، فهناك التربية الإيمانية التي هي أساس الحياة الإسلامية، وهناك العمل الاقتصادي من شراء أسواق في المدينة وحث على العمل وتحديد لمنهج الكسب والاستثمار والإنفاق، وهناك العمل العسكري الرادع

(1) مجموعة رسائل الإمام حسن البنان رسالة التعاليم (ص 2) – ط 1- الإسكندرية- دار الدعوة– بدون.

للعدو المدافع عن منجزات الدعوة والدولة، وهناك العمل السياسي من المراسلات والتفاوض والأحلاف واستقبال الوفود، وهناك الجانب العلمي من الفتوى والتعليم والتوجيه الذي وصل إلى التخصص كما تخصص أبي وابن مسعود في القرآن والقراءات، وكما تخصص زيد في الفرائض واللغات السيرانية والعبرانية، وكما تخصص معاذ في الحلال والحرام وهكذا، وكان العمل الإعلامي من شعر حسان وخطب النبي صلى الله عليه وسلم، وهناك العمل الاستخباراتي المعلوماتي حيث يلفت نظر الباحث في السيرة كلمة مكرورة بين سطور حوادثها وهي قولهم "بلغه صلى الله عليه وسلم كذا" " وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا"، كانت هناك عناية خاصة بالشباب والمرأة، ورعاية للأطفال وغير ذلك.

إن إدراك الباحث هذه النظرة الشمولية يشرح له معنى الاقتداء المأمور به في قوله تعالى:" لقد كان لكم في سول الله أسوة حسنة"، فليس الاقتداء مقصورا على تعبدات فردية أو تصرفات أخلاقية جزئية وإنما الاقتداء بأعماله صلى الله عليه وسلم الشاملة الذي ربت الأفراد، وبنت الأسر، وأقامت الدولة وأسست الحضارة، من نظر إلى السيرة من هذا الفهم الشامل سيدرك خطة إقامة الحياة الإسلامية.

ثانيا: صحة المنطلق والمنظور

فقد يقرأ السيرة يهودي أو نصراني فيتعامل معها بخلفيات دينية خاصة، فيبتعد في فهم السيرة عن مقاصدها، ولا يدرك أهداف التصرفات النبوية الإسلامية، وقد يقرأ السيرة علماني فيفسرها كذلك تفسيرا علمانيا يقضي على روحها ويطمس حقائقها، ولو قرأها صوفي منحرف أو شيعي ضال لحمل التصرفات النبوية وفسرها وفق رؤيته ومعتقده.

فهؤلاء جميعا كالذي يشرب الماء الزلال وهو مريض وكالذي ينظر إلى نور الشمس وهو أرمد.

إن صحة المنطلق العقدي والفكري شرط في صحة فهم المنهجية النبوية في الحركة والبناء، والدعوة والتغيير، وقد ذكرت من قبل كيف كانت تصرفات المستشرقين وأذنابهم تجاة السيرة النبوية.

ثالثا: الاستعانة بالقرآن في فهم السيرة

معلوم أن القرآن الكريم مصدر أساس في معرفة السيرة النبوية وتلقيها، فهو يورد أبرز وأهم حوادثها ومواقفها ويعلق عليها ويوجه إلى دروسها ومنهجيتها، كما رأينا في حديث القرآن عن الغزوات مثل بدر وأحد والأحزاب وحنين وغيرها، وكما رأيناه كذلك في حديثه عن الهجرة، عن مواقف المنافقين ومنهجية التعامل معهم ، والحديث عن اليهود وما وقع منهم تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك درس استراتيجي لكل مهموم بالنهوض بالأمة في كل عصر، ، فنحن إذا نتذوق القرآن باطلاعنا على السيرة ونفهم السيرة بدوام اطلاعنا على القرآن.

رابعا: تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وتفخيم شأنه وصحة الاعتقاد فيه:

إن صحة العقيدة في شأن النبوة الشريف يمكِّن الباحث في السيرة من فهم وقائعها وتفسير حوادثها على الوجه الصحيح، فيرى الكمال البشري في النبي صلى الله عليه وسلم يصاحبه العون الإلهي والتسديد الرباني، ويقدر قيمة الوحي في المواقف المختلفة كالأمر بالهجرة، والحماية في الغار، ونزول الملائكة في الغزوات، وأسرار انتصار الفئة المؤمن القليلة، ونزول الوحي بمسائل صلح الحديبية، والإخبار بأشياء لا يعرفها إلا نبي، كل ذلك لا يضعه المرء موضعه في الفهم والتفسير ما لم يكن صاحب اعتقاد جازم بصحة النبوة الشريفة، ولذلك رأينا خبط المستشرقين الذين لا يصدقون أصلا بعقيدة النبوة في محمد صلى الله عليه وسلم، وفي مقابل ذلك رأينا المبالغين في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم كيف فسروا حوادث وأضافوا أبعادا غير موجودة وغير مقصودة في تصرفاته صلى الله عليه وسلم.

إن الخلل في فهم النبوة، والضعف في تعظيم شأنه وحبه صلى الله عليه وسلم يفسد على المرء نظرته واستفادته من سيرته وهدية في بناء الأمة وتأسيس الحضارة، فصحة العقيدة وتوفر المحبة والتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم مفتاح هداية في إدارك المنهجية الراشدة في إقامة الدين ونشر الحق.

رابعا: تفعيل التخصصات المختلفة في فهم السيرة وتحليلها

يقول الدكتور عماد الدين خليل:" ولا بد من أجل التحقق برؤية كهذه، من استدعاء المؤرّخ والمفسر والمحدّث والفقيه والجغرافي وفيلسوف التاريخ والأديب لتوسيع نطاق الفضاء المعرفيّ عن العصر.. هاهنا حيث يصير النصّ القرآني

والحديث النبوي الصحيح والممارسة التاريخية لعصر الرسالة التي يقدمها المؤرخ والفقيه، والملامح البيئية التي يقدمها الجغرافي، والخبرة الذاتية والموضوعية التي يقدمها الشاعر أو الأديب، فضلا عن الدلالات المحدّدة للكلمات والتعابير التي يحددها اللغوي.. هاهنا المصادر الأساسية التي يكمّل بعضها الآخر من أجل تحديد ملامح المشروع الحضاري الذي وعدت به ومهدت له، ووضعت شروطه التأسيسية، ونفّذت بعض حلقاته، «سيرةُ» رسول الله صلى الله عليه وسلم". (1)

وهذا منطق سديد وقاعدة هامة في التعامل مع السيرة لتشكيل رؤية كلية شاملة بعيدة من التموضع والتجزيء المخل، فالسيرة حياة والحياة متعددة الأبعاد والزوايا والتخصصات وبالتالي لا يمكن فهمها من زاوية واحدة أو بتخصص واحد.

ومن هنا فالاقتصاديون يستخرجون نظريات ومنهج اقتصاد راشد من السيرة، ويستخرج العسكريون خطط وفنون العسكرية، وكذلك السياسيون والمربون وهكذا حتى تنضاف خبرات راشدة وكاملة في الرؤية الإسلامية المعاضرة ونحن في طريق نهضتنا الإسلامية.

خامسا: التركيز جانب الدراية والفهم والتحليل واستخلاص العبر

سبق القول أن منهج الإخباريين اعتمد على نقل النصوص سواء دخلت في دائرة القبول أو لم تدخل، ونحن نؤكد على أهمية الرواية (أي الجمع) لأنها حفظت لنا الوقائع من الضياع والنسيان، لكن لا بد من تفعيل قوانين الرواية في الإسلام من حيث (القبول أو الرد) لنخرج بنصوص صحيحة أو مقبولة، وبخاصة إن كانت في مجال اعتقادي أو فقهي، ثم تأتي المسالة الأهم المكملة لعملية النقل والتمحيص وهي مسألة التحليل والعناية "الدراية"، بحيث نستخرج من السيرة العبرة والعظة والقوانين والنواميس والمنهجية الصحيحة لحركة الحياة لنبني عليها ونهتدي بها باعتبار ذلك هو المقصود الأعلى من دراستها.

([1])السيرة النبوية مشروعا حضاريا (ص 3،4) مصدر سابق.

وفي مسألة التحليل واستكشاف المنهج نبه الباحثون إلى أمرين أحدهما: "الاهتمام بتحرير مصطلح المنهج النبوي" حيث يشير بعضهم قائلا:" إن استخلاص المنهج مطلب ضروري، بيد أنه ليس بالأمر اليسير، خلافاً لما قد يتوهمه بعضهم حين ظنوا أن (المنهج النبوي) على طرف الثمام، وأن نظرة عجلى على السيرة العطرة، أو جزء من السنة المطهرة، أو انتقاء مقاطع من هنا أو هناك كافية للإحاطة بهذا المنهج الفذ، وبناء حتميات تاريخية على تلك الأفهام العجلة. وتصوُّر بعضٍ أن بالإمكان إعادة إنتاج العهدين المكي والمدني، أو تمثيلهما في أي واقع يُعَدُّ مجازفة كبيرة.

إن المنهج حين يطلق في إطار معرفي إنما يراد به قانون ناظم ضابط يقنن الفكر ويضبط المعرفة التي إن لم يضبطها المنهج فقد تتحول إلى مجرد خطرات انتقائية مهما كانت أهميتها لا يمكن تحويلها إلى ضوابط فكرية وقوانين معرفية تنتج الأفكار وتولد المعارف وتضبط حركاتها وتميز بينها؛ فبالمنهج يمكن أن نحَدد طبيعة المعرفة وقيمتها وحقل عملها واتجاهها وكيفية البناء عليها والتوليد منها.

إن أي فكر تتضارب مقولاته وتتناقض لا يعتبر فكراً منهجياً حتى لو تمكن أصحابه من تقديم مختلف التأويلات التوفيقية: كالتأويل، والمقاربة، والتلفيق، وغيرها. ولذلك فإن إطلاق مصطلح: (منهج النبي صلى الله عليه وسلم) و(المنهج الإسلامي) على ما يصل الباحثون إليه باجتهاد شخصي أو فردي لا بد أن يُحتاط فيه، كأن يقال: على ما نراه، أو على ما توصلنا إليه... الخ" ....

مطلوب اليوم أكثر من أي وقت مضى قراءة السيرة ودراستها دراسة استراتيجية في مختلف الحالات الاجتماعية والتربوية والعلمية والإدارية والسياسية والاقتصادية والحركية والأمنية والثقافية. ففي السيرة بيان لجميع الحالات أو أصولها؛ خلافاً لصنيع بعض كُتَّاب السيرة حين يصورون حياة النبي صلى الله عليه وسلم على أنها صراع وحروب وغزوات وسرايا، ويغفلون عن الجوانب الأخرى "(1).. وهذه لفتة جديرة بالرعاية والتحقق.

وثانيهما: العناية بمواطن الاقتداء وإبرازها والتفريق بينها وبين غيرها، وذلك للتفريق بين أحواله صلى الله عليه وسلم ودلالة هذه الأحوال على التشريع أو غيره من الصفات على النحو الذي ذكره القرافي وفصله ابن عاشور في كتاب المقاصد، حيث نبه العلماء إلى ضرورة "تمييز مقامات الأقوال والأفعال الصادرة عنه صلى الله عليه وسلم

([1]) انظر / منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها في المرحلة المكية ، الطيب برغوث (ص 36-38) من مقدمة د طه جابر العلواني (الكتاب رقم 17) من سلسلة قضايا الفكر الإسلامي – إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،ط1- 1416،1هـ -1996م.

والتفرقة بين أنواع تصرفاته"[1] ومعلوم أن تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم أنواع متعددة فبعضها تشريع دائم للأمة، وبعضها كان منه كتصرف جبلي لا على سبيل التشريع، وبعضها خرج على وقائع أعيان، وهكذا، فلا ينبغي تعميم حكم التصرفات النبوية وإنما المطلوب إبراز مواطن الاتباع والاقتداء.

سادسا: التركيز على البعد الحضاري الشامل والبعد عن التجزيء

وهذا هو جانب العطاء السخي الذي ظل حلقة مفقودة في النظر والاستقصاء والتحليل كما يذكر د/ عماد الدين خليل إذ يقول في ذلك:" ولكن رغم هذا العطاء السخي، ظلّت هنالك حلقة لم تنل حظها من البحث والدرس والاستقصاء والتحليل، بالمقارنة مع الحلقات الأخرى؛ تلك هي الحلقة الحضارية، أو بعبارة أكثر دقة، محاولة متابعة البُعد الحضاري للسيرة، وتقديم تصوّر متكامل عن معطياته الأساسية.

ورغم أن العقدين الأخيرين شهدا عددا من المحاولات في هذا الاتجاه لا تتجاوز –ربما– أصابع اليد الواحدة، فإن الحاجة لا تزال تتطلب المزيد من المحاولات، من أجل إعطاء هذا الجانب من السيرة حقه، والإلمام بجوانبه كافة.

لقد بشر عصرُ الرسالة بمشروع حضاري، وتمكّن من تنفيذ العديد من حلقاته، ووضع شبكة من الشروط التأسيسية التي مكّنت الأمة الناشئة من بناء حضارتها المتميزة بعد عقود معدودة من الزمن.

ولعل المدوّنات الأولى لأخباريّي ومؤرخي السيرة كمغازي الواقدي، وسيرة ابن إسحاق، وطبقات ابن سعد، وأنساب البلاذري، وتاريخ الطبري...الخ، بإعطائها مساحة واسعة للمغازي –وأحيانا للرجال أو الشمائل– ضيّقت الخناق على البعد العمراني أو الحضاري لعصر الرسالة الذي تمكن بعد كفاح مرير من إقامة دولة الإسلام، ووضع التأسيسات الأولى لحضارته المتميزة.

عشرات السنين ومئاتها، ونحن نتحدث عن هذا العصر من الداخل، وبرؤية تجزيئية تتمركز عند الغزوات، والشمائل، والمفردات الفقهية. ولقد آن الأوان لاعتماد «رؤية الطائر» إذا صح التعبير، لاستشراف الملامح الأساسية للعصر، والإنجازات الكبرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم". (2)

([1]) مقاصد الشريعة الإسلامي لمحمد الطاهر بن عاشور (ص118) تقديم /حاتم بوسمنة (بيروت – دار الكتاب اللبناني – 2011م)

([2])السيرة النبوية مشروعا حضاريا (ص 3) مصدر سابق.

المبحث الثاني : معالم المنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري

جاء محمد صلى الله عليه وسلم والبشرية عامة، والعرب بخاصة غاية في الضلال العقدي والتخلف الحضاري والعمراني، عاشت البشرية حالة فوضى سلخت من أعمارها عقودا بل قرونا متطاولة في العبث والضلالة، حتى في تلك الممالك التي برز فيها بعض العمران والتمدن رأينا كان ساد فيها مع ذلك الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي والفساد الأخلاقي والجور الاقتصادي ، فلما بعث هذا النبي العظيم لم تكن بعثته لمجرد تصحيح تصورات وأفكار عقدية حول الإله أو الدعوة إلى جملة من المسائل الأخلاقية أو الشعائرية، أو تعديل بعض الأوضاع الاقتصادية إنما كان الهدف الوصول إلى الحالة الحضارية الشاملة مؤسسة على العقيدة السليمة والإنسان الصحيح وفق قوانين إلهية صارمة، هذا هو الإنجاز الحقيقي للرسالة والذي كشفت عن خطواته ومراحله وحركته السيرة النبوية، يؤكد ذلك د/ عماد الدين خليل قائلا:" لقد بشر عصرُ الرسالة بمشروع حضاري، وتمكّن من تنفيذ العديد من حلقاته، ووضع شبكة من الشروط التأسيسية التي مكّنت الأمة الناشئة من بناء حضارتها المتميزة بعد عقود معدودة من الزمن."[1]

فمن الظلم للحقيقة أن تفهم السيرة على أنها جملة من المعارك والصراعات الحربية، أو مجموعة من التوجيهات الأخلاقية أو تشريعات فقهية فحسب إنما سيرته صلى الله عليه وسلم، كانت إنجازا حضاريا غير مسبوق أو تأسيسيا لمشروع حضاري كبير استكملت مراحله بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم يقول عماد الدين خليل:" وعندما جاءت السنة التاسعة للهجرة، ونزلت آيات (أو إعلان) براءة في صدر سورة التوبة، لتصفية الوجود الوثني في جزيرة العرب، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حقّق، وصحابته الكرام رضي الله عنهم على مستوى الفعل التاريخي، المنجزات التالية التي ينطوي كل منها على بُعد حضاري مؤكد:

أولا: التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد.

ثانيا: الوحدة في مواجهة التجزّؤ.

ثالثا: الدولة في مواجهة القبيلة.

([1])السيرة النبوية مشروعا حضاريا (ص3) مصدر سابق.

رابعا: التشريع في مواجهة العرف.

خامسا: المؤسسة في مواجهة التقاليد.

سادسا: الأمة في مواجهة العشيرة.

سابعا: الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد.

ثامنا: المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظن والهوى.

تاسعا: المعرفة في مواجهة الجهل والأمية.

عاشرا: الإنسان المسلم الجديد الملتزم بمنظومة القيم الخُلقية والسلوكية المتجذّرة في العقيدة، في مواجهة الجاهليّ المتمرس على الفوضى والتسيّب وتجاوز الضوابط وكراهية النظام.

وكانت آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعاليمه قد أرست جملة من القيم المنهجية وآليات العمل التي مهّدت للمتغيرات العشرة الآنفة الذكر، ودعمتها، ووضعت -إلى جانبها- شبكة من الشروط هيأت المناخ الملائم للفعل الحضاري، ومن بين تلك القيم والآليات:

1. المعرفة هي حجر الزاوية.
2. النزوع إلى الأمام.
3. التحذير من هدر الطاقة.
4. مبدأ الاستخلاف.
5. مبدأ التسخير.
6. التحفيز على العمل والإبداع.

7. مجابهة التخريب والإفساد.

8. التوازن بين الأضداد والثنائيات، وتوحدها.

9. التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون.

10. تحرير الإنسان والجماعات والشعوب على المستويات كافة.

لقد جاء الإسلام لكي يتحرك وفق دوائر ثلاث: تبدأ بالإنسان وتمر بالدولة وتنتهي إلى الحضارة التي سيقدر لها أن تنداح لكي تغطي مساحات واسعة من العالم القديم"(1).

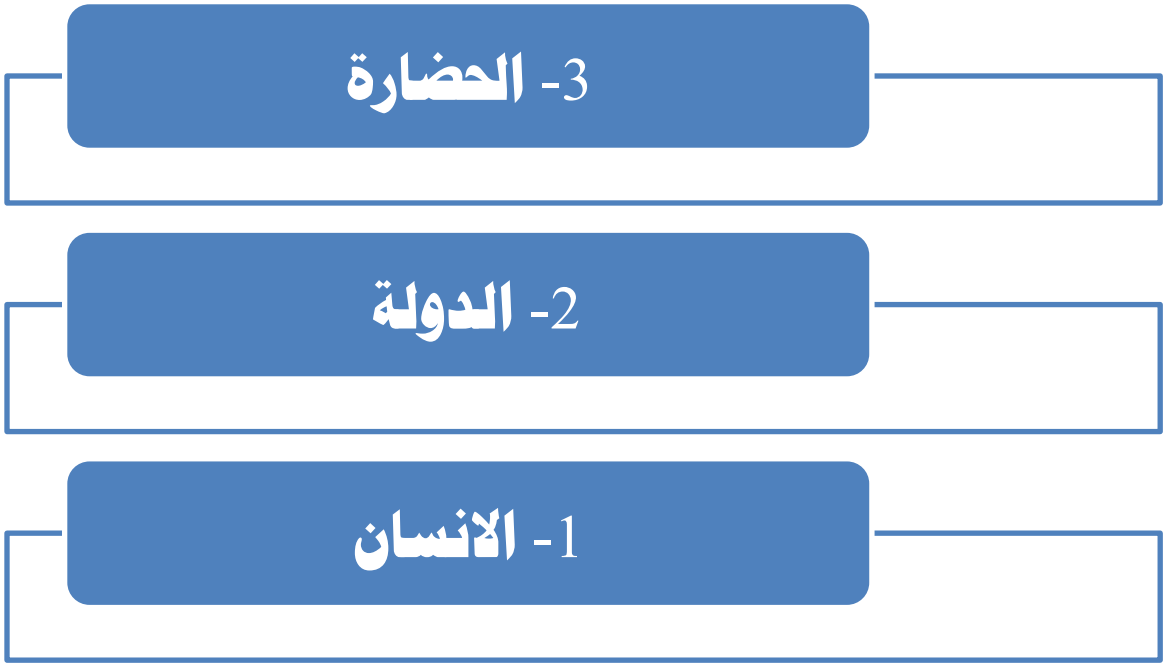

والسؤال ما المنهج الذي اتبعه صلى الله عليه وسلم في هذا البناء الحضاري الهائل الذي بدأ بالإنسان ثم الدولة ثم انتهى إلى حضارة إسلامية قيمية عالمية هذا هو السؤال وهذه هي إشكالية البحث نجيب عنها في المطالب التالية:

1- السيرة النبوية مشروعا حضاريا (ص5) مصدر سابق.

المطلب الأول: العناية بالإنسان

الإنسان أحد ركائز ثلاث تقوم عليها الحضارة(1)،لذا كانت العناية النبوية بالإنسان تعليما وتربية وتزكية، قال الله تعالى :" هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ"(2).

فالإنسان في الفعل الحضاري مركز الصلاح والفساد، ومنطلق الإصلاح والإفساد، وكل عمل حضاري لا ينظر تلك النظرة للإنسان فإنه يهدر ويهدم ركنا ركينا من أركان العمل الحضاري.

لقد كان من أسس المنهجية النبوية في تأسيس حضارة إسلامية عالمية شاملة "العناية بالإنسان"، حتى خرج جيل متميز في شتى جوانب الحياة وصفه سيد قطب بأنه " جيل قرآني فريد"(3) وتمثلت تلك العناية منه صلى الله عليه سولم بالإنسان في أعمال وتصرفات عديدة أبرزها:

تكريم أصحابه، حبهم والمعايشة الدائمة لهم، القدوة، دوام التربية والتعليم، حسن توظيف طاقاتهم، التقدير وإنزال كل منهم منزلته، الرعاية والمتابعة، حمايتهم والمحافظة عليهم إلى غير ذلك من التصرفات التي خرجت هذا الجيل.

وهذه بعض صور من العناية النبوية بالإنسان :

عايش رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بكليته، فتجاوبوا معهم بكليتهم، عايشهم في تفاصيل حياتهم:

ففي المسجد حيث كان المحضن التربوي الأول في العهد النبوي ، قرينه في ذلك ميدان الجهاد والقتال، والرسول صلى الله عليه وسلم كان إمام الناس وكان يقول:"صلوا كما رأيتموني أصلي"(4)

([1]) ركائز وأركان الحضارة (الإنسان – المنهج – المادة).

([2])سورة الجمعة ،آية (2).

([3]) معالم في الطريق، سيد قطب (ص 8) – القاهرة – ط دار الشروق.

(4) متفق عليه ،قال ابن حجر في التلخيص :حديث" صلوا كما رأيتموني أصلي ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم "متفق عليه من حديث مالك بن الحويرث بألفاظ مختلفة .

يسمع المسلمون صوت إمامهم، ويصلون بصلاته، فإذا التفت إليهم وعظهم مرة، وعلمهم أخرى، وأفتاهم ثالثة، يرى المسيءَ في صلاته فيصحح له، والجاهل فيعلمه ويستغرق ذلك كله من وقته ما يكفي لإعطاء زاد روحي عالي، وعطاء علمي كافي .

وفي كذلك يلتف الأصحاب حول معلمهم صلى الله عليه وسلم حلقا حلقا، ففي "كتاب الصلاة" ترجم البخاري لذلك قائلاً : باب الحلق والجلوس في المسجد" ، وأورد أحاديث جاء في شرحها قول المهلب : شبه البخاري جلوس الرجال في المسجد حول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب بالتحلق حول العالم.

وكانت التربية بالحدث في المسجد كما في كانت خارجه، أورد البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذا أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد، وقال فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما أحدهما فرأي فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر جلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إلا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فآوي إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض الله عنه [1] .

كانت تلك التربية والمعايشة وجو الاقتداء بعيدا عن كل تكلف أو تصنع، أورد البخاري عن عباد بن هيثم عن عمر أن رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم مستلقيا في المسجد واضعا إحدى رجليه على الأخرى (2) .

ولم تكن كذلك عشوائية ولا مرتجلة بلا هدف إنما كانت تربوية مقصودة متنوعة، فمرة يفسر القرآن للصحابة، قال الإمام السيوطي في الإتقان : " إنه صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه جميع تفسير القرآن وغالبه " ويقصد السيوطي أنه صلى الله عليه وسلم قد فسر كثيرا من القرآن لأصحابه،وترك كثيرا لم يفسره لهم لأسباب تعرف في كتب علوم القرآن.

ومرة يقص عليهم قصص التاريخ وهو كثير ومفيد. وما قصة أصحاب الأخدود، أو الثلاثة أصحاب الغار وغيرهما مما ذخرت به كتب السنة الصحيحة عنا ببعيد، ومرة يعظ حتى يبكي الناس فتخشع منهم القلوب وتذرف الدموع .

(1) شرح البخاري (66/1) كتاب العلم ، باب من قعد حيث ينتهي بد المجلس ومن رأي فرجة في الحلقة مجلس فيها علم .
(2) شرح البخاري (85/1) كتاب الصلاة ،باب الاستلقاء في المسجد ومد الرجل.

ومرة يسأل الصحابة عن أحوالهم، ويتعرف على عباداتهم في صورة حوار لطيف يسألهم: من منكم أصبح اليوم صائما، من منكم تصدق بصدقة اليوم، من منكم عاد مريضا اليوم، ويتلطف معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسألهم حتى عن رؤاهم المنامية فيقول: من منكم رأي الليلة رؤيا،يسمع منهم صلى الله عليه وسلم، وربما قص عليهم ما رآه، بأبي هو وأمي .

إن هذا القرب، وهذا التفاعل والتعايش كان له أبعد الأثر في النفوس، فهو يصحح مفاهيم، ويحفز على الأعمال، وينشط إلى الخير، ويزيد في العلم، ويقرب بفضل الله بين القلوب، في المسجد رأي الصحابة كيف يتعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع الوفود القادمة، ومع الأعراب السائلين، ومع كل صنف يدخل عليه .

وفي مجال العمل وميدان الجهاد :

عاش صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في معترك الحياة يشاركهم أعمالهم في سلمهم وحربهم، فمن يوم أن دخل المدينة نراه يمارس الحياة مع أصحابه. يقول ابن هشام عن مسجد المدينة فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل .

ومشهد آخر من المشاركة والتعايش نري رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمع بالأحزاب وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ترغيبا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه فدأب فيه ودأبوا .

ولم تكن تلك المشاركة هامشية أو شكلية لا روح فيها، إنما كانت مشاركة حقيقية ربما تحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أثقل ما فيها، وما قصة الصخرة التي استعصت على الأصحاب عند الحفر في المقدمة عنا ببعيد فما كان إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

(1) انظر : سيرة ابن هشام 3/ 149 – 150 .

قال سلمان : " ضربت ناحية من الخندق، فغلظت عليَّ صخرة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني فلما رآني أضرب ورأي شدة المكان عليَّ، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة قال : ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته برقة أخرى قال: ثم ضرب الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى إلى آخر الرواية " .

وعند البيهقي لما حضر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الخندق أصاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين جهد شديد فمكثوا ثلاثا لا يجدون طعاما، حتى ربط النبي صلى الله عليه وسلم على بطنه حجرا من الجوع.

وفي مجال العناية الاجتماعية بالإنسان نرى رسول الله صلى عليه وسلم يزور أصحابة، ويشاركهم في الطعام، ويعرف أحوال الناس حتى الأطفال.

إن المعايشة تولد الحب، ويشعر أهلها بعد الفراق بشيء من الوحشة، فتشتاق النفوس إلى اللقاء. روي الإمام البغوي أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما غيَّر لونك ؟ فقال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي مرض ولا وجع، غير أني إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك، لأنك ترفع مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة فأنا في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبدًا فنزلت هذه الآية : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [1].

وعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : " لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار: إما بكرة وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه الرسول صلى الله عليه وسلم في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها " [2] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا تفقد أحدا من الأصحاب فافتقده عاده أو أرسل إليه أحدا، قال ابن إسحاق حدثني محمد بن مسلم الزهري عن عروة بن الزبير عن أسامة بن زيد بن حارثة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(1) تفسير البغوي ج/ 4 ص 70 سورة النساء : (آية 13) .
(2)انظر سيرة ابن هاشم (8/2) وتأمل قولها رضي الله عنها : ((لا يخطئ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرف النهار"" .

" ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادة يعوده من شكو أصابه على حمار عليه إكاف، وأردفني رسول صلى الله عليه وسلم خلفه .. إلخ " [1].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤاكل أصحابه، ويُدعى إلى الطعام فيلبي، لم يكن يأنف أنفة الملوك ولا يستعلي استعلاء المتكبرين، لأن صاحب رسالة: (ويزكيهم) .

وكثيرة هي تلك المواقف التي شارك فيها الرسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في طعام،ومن أشهرها ما وقع يوم الخندق في قصة جابر المشهورة والواردة في صحيح البخاري .

و من قبل المدينة كانت كذلك المعايشة والعناية في مكة "مرحلة التربية والأعداد الأولى في الدعوة" ندرك ذلك من هذه الرواية، حيث قالت خديجة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم لما أخبرها خبر الوحي وقال: لقد خشيت على نفسي،: "كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضعيف، وتعين على نوائب الحق " [2] .وما صلة الرحم،وحمل الضعيف، وإكساب المعدوم، وإكرام الضيف وإيوائه، إلا أعمال اجتماعية لا تتحقق إلا بالمخالطة والمعايشة، وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفعل ذلك قبل بعثته ويتركه بعد النبوة التي يعد هذا كله من أبرز توجيهاتها.

وفي ذات السياق كان هناك محافظة على النسيج الداخلي للأمة بالتحرك في حل المشكلات وإصلاح ذات البين لبناء منظومة اجتماعية قوية، فعند الشيخين عن سهل بن سعد :"أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم".

عائد العناية النبوية بالإنسان

لقد أثمرت عناية الرسول صلى الله عليه وسلم بأصحابه في كل شئونهم ثمارا عظيمة منها:

1- توريث الدعوة : حيث كان المثال واضحا أمام الصحابة رضي الله عنهم، فقد ورثوا الدعوة بحذافيرها ودقائقها منه صلى الله عليه وسلم فاكتسبوا الأخلاق الفاضلة، والمعارف الراقية، والحركة الراشدة ،والعادات الحسنة،

([1]) جزء من حديث طويل متفق عليه.

(2) شرح البخاري كتاب بدء الوحي 30/1حديث رقم 3 .

فتغيرت أحوالهم إلى عباد ربانيين ومجاهدين فاتحين، ودعاة هادين مهتدين، حتى إننا لنجد صحابيا كأبي بكر كأنه نسخة من النبي صلى الله عليه وسلم في صفاته وحركته، ففي البخاري في قصة هجرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى الحبشة أنه لما خرج قاصدا الحبشة لقيه ابن الدغنة فقال له : أين تريد يا أبا بكر: فقال أبو بكر رضي الله عنه : " أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال ابن الدغنة، فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار . فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق "[1].

وفي موافقة وصف ابن الدغنة لأبي بكر_ وصف خديجة النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل أولا على عظمة الصديق، وثانيا: على مدى الاقتداء منه رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم حتى، كان أبو بكر _ – إن شئنا أن نقول — إنه نسخة محمدية سببها ذلك الاقتداء الدقيق.

ثم كان توريث العمل والممارسة من تعليم العلم والجهاد في سبيل الله، فكان لجابر بن عبد الله رضي الله عنه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم منها، اقتداء برسول الله،وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا صلوا الغداة قعدوا حلقا حلقا كما قال أنس رضي الله عنه .

وفي البخاري عن منصور عن أبي وائل قال : ‘‘ كان عبد الله يذكّر الناس في كل خميس فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال : أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا ‘‘ [2] .

ومن ثمرات التربية والعناية بالإنسان شفافية المجتمع وصراحته، ففي الحديث الصحيح أن ما عزا والغامدية اعترفا أمام الرسول صلى الله عليه وسلم بجريمة الزنا، يريدان أن يتطهرا من أمر اقترفاه، وتأتي امرأة من الصحابيات كما في البخاري وتقول يا رسول الله : ‘‘ إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ قال النبي

(1) ابن حجر العسقلاني في شرح البخاري (7/ 271 – 272) حديث (3905) .
(2) كتاب العلم باب من جعل لأهل العلم أياما معلومة (1/ 197) ، حديث رقم (70) .

صلى الله عليه وسلم : إذا رأت الماء . فغطت أم سلمة تعني وجهها وقالت : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحتلم المرأة ؟ قال نعم تربت يمينك ففيم يشبهها ولدها ؟.

ويأتي سيدنا حنظلة رضي الله عنه ليصارح رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يشعر في قلبه، وما يعتري حالته الإيمانية من تغير وتقلب ويقول : "نافق حنظلة"، أي صراحة هي تلك الصراحة التي يفصح فيها الجندي عما في نفسه بل عما في مكنوناتها لمربيه.

ومن عائد العناية بالإنسان معرفة أقدار الصحابة والوقوف على إمكاناتهم وحسن توظيفها في خدمة الأمة.

روي مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لأشج عبد القيس :إن فيك خصلته يحبها الله تعالى الحلم والأناة " [1] .

وروي عن أبي ذر قال : " قلت يا رسول الله إلا تستعملني ؟ قال فضرب بيده على منكبي، ثم قال يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها" [2] .

وقصة الأذان تظهر الدراية الجيدة بقدرات الصحابة وإمكاناتهم، وكيفية توزيع المهام على المؤهلين لها بناء على رصيد المعرفة والدراسة الذي يملكه القائد الأعلى محمد صلى الله عليه وسلم .

روي ابن هشام قصة الأذان وحكي رؤيا عبد الله بن زيد التي رآها بخصوص الأذان فلما أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنها لرؤيا حق إن شاء لله فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن فإن أندى صوتا منك"[3]. وفي البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "استقرئوا القرآن من أربعة : عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل"[4] .

وأعمق من ذلك ما رواه البخاري وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم : " خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنوا لحارث بن الخزرج ثم بنو ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير "

---

(1) هو المنذر بن عائذ من بني عبد العيش كان سيدهم وابن ساداتهم قدم بوفدهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

([2]) رواه مسلم كتاب الإمارة، باب كراهة الإمار بغير ضرورة (1825).

([3])رواه أبو داود

([4])رواه البخاري ،كتاب /مناقب الصحابة ، باب مناقب عبدالله بن مسعود.

إنها المعايشة المحيطة التي تنكشف بها أوضاع الدعوة، وأصولها، وأقدار الرجال ودرجاتهم، ومواهبهم ومؤهلاتهم حتى الدور والبيوت والعوائل.

ومن ثمار العناية بالإنسان في العهد النبوي : دفع التكلف، والتكلف يخرج الدعوة عن بساطتها، ويجعل العلاقات بين الناس ثقيلة مملة، وهو باعث التجمل والمجاملة، ويجعل الحواجز بين الناس سميكة تحجب الحب وتمنع القرب .

وقد رأينا أن رعاية الإنسان المسلم في للجيل الأول أثمرت بساطة في كل شيء، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتمد البساطة مع أصحابه وبادلوه هذا الأمر، فلم يكتم فرد منهم شيئًا عن نبيه صلى الله عليه وسلم وكانوا يتكلمون بلا تزين ولا تكلف، فعن جابر بن عبد الله قال جابر أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فقال يا رسول الله: ثيابنا في الجنة ننسجها بأيدينا؟ فضحك القوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :مم تضحكون من جاهل يسأل عالما، لا يا أعرابي ولكنها تشقق عنها ثمار الجنة "[(1)] .

إن التقدير والعناية بالسائل التي تكسبه ثقة وطمأنينة بحيث لا تحجزه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من إلقاء السؤال على أي كيفية أو بأي صيغة معبرا عما يجول في فكره، وما يستكن في ضميره طالبا المعرفة والبيان .

ثم يأتي الحب بل شيوع المحبة داخل عناصر المجتمع كثمرة كبرى من ثمار العناية بالإنسان، لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرك وسط أصحابه يزرع الحب ويجني ثماره، ويشيع الإخاء ليتمتع بآثاره المسلمون .

ففي البخاري عن أنس رضي الله عنه قال رأي النبي صلى الله عليه وسلم النساء والصبيان مقبلين قال: حسبت أن قال مِن عُرس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ممثلاً فقال اللهم أنتم من أحب الناس إلَيَّ قالها ثلاث مرات"[(2)] .

وفي دلائل النبوة عن أنس كذلك قال : "قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فلما دخل المدينة جاءت الأنصار برجالها ونسائها فقالوا: إلينا رسول الله فقال: دعوا الناقة فإنها مأمورة، فبركت على باب أبي أيوب رضي الله عنه _ قال: فخرجت جَوارٍ[1] من بني النجار يضربن بالدفوف وهن يقلن :

(1) رواه الطبراني في المعجم الصغير .
(2) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قوله النبي صلى الله عليه وسلم أنتم أحب الناس إلَيَّ (3785) 7 /142 .

نحن جَوارٍ من بني النجار يا حبذا محمدا من جار

فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:" أتحبوني ؟ فقالوا: أي والله يا رسول الله قال: أنا والله أحبكم أنا والله أحبكم أنا والله أحبكم "[2] وفي رواية كذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:" الله يعلم أنه قلبي يحبكم".

لقد تجلت تلك الحقيقة حتى عرفها الأعداء فقد قال أبو سفيان وهو يومئذ مشرك : " ما رأيت أحدا من الناس يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا".

وقالت نسيبة بنت كعب بعد أن قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد شهداء فقالت لما أخبرت بذلك: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا : خيرا هو بحمد الله كما تحبين فقالت: أروني حتى أنظر إليه. فلما رأته قالت: كل مصيبه بعدك جلل"[3] ، فالعناية بالإنسان كانت من أبرز المعالم المنهجية في التغيير والبناء الحضاري الذي قام به صلى الله عليه وسلم، وهو أخطر ما في الحياة الإسلامية اليوم حيث الإهمال الظاهر للإنسان الذي هو محور الإصلاح والإفساد كما أشرت من قبل.

---

[1] – جمع جارية.

([2])رواه البيهقي في دلائل النبوة (ج2، ص 508) وحكم عليها ابن كثير في البداية والنهاية بالغرابة (ج3،ص 240).

([3])الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض اليحصبي (ص 384) ط دار الفكر – بيروت ،1423هـ- 2002م.

المطلب الثاني : تأسيس الهوية وترسيخ القيم

وأريد بالهوية هنا: "جملة الخصائص التي تمتاز بها الأمة بين الأمم في حركتها الحضارية في الحياة"، وحتى تقف الأمة موقف المتبوع المؤثر لابد أن تمتاز بخصائص تجعلها متميزة تشرئب الأعناق إليها، فتشعر بالتفوق والاستعلاء الحضاري بدلا من شعورها بالاستخذاء والضعف، لقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تأسيس "هوية الأمة" بكل أبعادها الداخلية والخارجية الأصلية والفرعية.

- فعلى مستوى الفكرة (العقيدة) (الداخل) تأسست الهوية بأجلى وأصرم حالة وصورة.
- وعلى مستوى (المظهر والسلوك) تأكدت معاني وخصائص الهوية بأجلى وأصرم حالة صورة.
- وعلى مستوى (التعبد) كان الأمر كذلك، وهكذا في كل تفاصيل الحياة كانت الهوية تتأسس وتتمايز عن غيرها .
- وكذلك على مستوى "التشريعات والقوانين" كان التميز وبروز الهوية.

والأمة القائدة المتبوعة لا بد أن تمتلك من مقومات الهوية ما يلفت الأنظار اليها ويغري باتباعها، وهذا يعني أن تكون في حالة قوة وتميز في شتى شئون حياتها، فالأمم الضعيفة لا يؤبه لها ولا تجذب غيرها إليها.

وهذا قانون في التغيير والبناء الحضاري يؤكده ابن خلدون في ا"**لفصل الثالث والعشرون**" من مقدمته تحت عنوان:

" في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"

والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وفر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه والله اعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله، وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائما وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر إلى كل قطر

من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية فجند السلطان في الأكثر لأنهم الغالبون لهم حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير"(1)

ولذا جاءت تشريعات الإسلام بالتركيز على "التوحيد" كأساس للهوية الحضارية، وركز على "الاستسلام" الذي هو مقتضى التوحيد، وكان التركيز على " المسجد والأذان والصلاة" كأبرز معالم الهوية، ثم جملة آداب وأعمال أمر بها الإسلام وحث عليها لتعزيز الهوية منها : التحية، ومنها البسملة، ومنها الأمر بإطلاق اللحى، وحجاب المرأة،...الخ، ثم جاءت كذلك روايات صارمة في منع التشبه بغير المسلمين فيما يخص عاداتهم وأعمالهم الدينية، وحدث النبي صلى الله عليه وسلم صحابته – وذلك من باب التحذير والتنبيه – عن زمن تضيع فيه معالم الهوية فيحصل ضعفهم فقال :" لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه"(2).

إن مثل هذه التشريعات والتحذيرات جديرة بأن تخلق أمة تعتز بفضائلها، وثبت على مبادئها ، وتحافظ على قيمها وخصائصها، وتقوم بعملية تمييز وفرز فيما تأخذ وتدع من ثقافة غيرها ومنجزاته، وتشعرها هذه الهوية بالاعتزاز بالذت والاستقلالية في الحركة والقرار، وتدفعها بكل قوة إلى تبليغ رسالتها دون خوف أو وجل.

وقد رأينا اليوم أمتنا في زمن تخلفها الحضاري كيف فقدت كثيرا من معالم هذه الهوية، فاتبعت الشرق والغرب بصورة مهينة على الرغم من امتلاكها عناصر هويتها الدينية والحضارية.

.

(1) مقدمة ابن خلدون (ص147) الاسكندرية ، ط دار ابن خلدون ، بدون.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك(502/4).

المطلب الثالث: توظيف طاقات الأمة

السعي الحضاري وتحقيق منجزات الحضارة لا يتحقق إلاّ بتوظيف طاقات الأمة كبيرها وصغيرها كلٌ فيما يحسن ويجيد، ومنع كل إنسان من الدخول في غير مجاله أو فيما يضعف عن القيام به، بهذا يتحقق (الإنجاز والإتقان).

وأمتنا اليوم تعاني من هدر الطاقات وقتل المواهب والإمكانات ، وهجرة العقول والكفاءات، حتى إننا لنجد إحصاءات مفزعة عن الكم الهائل من هذه العقول المهاجرة التي لا تجد بابا لاستيعابها وتوظيفها بما يليق بها داخل مجتمعاتها الإسلامية، **ففي إحدى الدراسات نطالع الإحصاءات التالية:**

"قامت كثير من الهيئات كجامعة الدول العربية ومؤسسة العمل العربية والأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو بمحاولة إحصاء عدد المهاجرين من الكفاءات العربية الإسلامية، وخلصت إلى ما يلي من الوقائع والإحصائيات الخطيرة :

- هاجر خلال النصف الثاني من القرن العشرين بنسبة 25-50% من حجم الكفاءات العربية الإسلامية إلى الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية وكندا .

- هاجر أكثر من سبعمائة وخمسين ألف (750000) عالم غربي إلى الولايات المتحدة منذ سنة 1977م، وحتى سنة 2006م .

- يهاجر كل سنة حوالي مائة ألف (100000) من أصحاب الاختصاصات في الطب والهندسة والتكنولوجيا من تسعة بلاد عربية إسلامية هي: مصر، سوريا، العراق، لبنان، الأردن، فلسطين، تونس، المغرب، الجزائر .

- يهاجر إلى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا نسبة خمسين بالمائة (50%) من الأطباء، وخمسة وعشرين بالمائة (25%) من المهندسين، وخمسة عشر بالمائة (15%) من مجموع الكفاءات العربية .

- يستقر في البلاد الغربية نسبة سبعين بالمائة (70%) من العلماء الذي يسافرون إليها بهدف التخصص ولا يعودون إلى أوطانهم .

- هاجر أكثر من مليون ونصف من الكفاءات العربية الإسلامية إلى الولايات المتحدة وكندا في الفترة ما بين سنة 1960م وحتى سنة 2007م .

- خمسة وسبعون بالمائة (75%) من الكفاءات والعقول العربية الإسلامية تستقطبها وتتصيدها ثلاث دول غربية هي: الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وكندا .

- أربعة وخمسون بالمائة (54%) من الدارسين والطلاب العرب والمسلمين الذين يدرسون في الدول الغربية يستقرون في البلدان التي تخرجوا منها، ولا يعودون إلى أوطانهم .

- أربعة وثلاثون بالمائة (34%) من الأطباء الأكفاء في بريطانيا ينتمون إلى الجاليات العربية، وقدمت مصر وحدها في السنوات الأخيرة ستين بالمائة (60%) من العلماء إلى الولايات المتحدة، وخمسة عشر بالمائة (15%) كانت نسبة مساهمة كل من العراق ولبنان .

- وفقاً لإحصاء الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء سنة 2003م يقدر عدد المصريين المتميزين من الكفاءات والعقول التي هاجرت بـ ثمانمائة وأربعة وعشرين ألفاً (824000)، منهم ألفين وخمسمائة (2500) عالم .

- توزع الكفاءات المصرية المهاجرة من العلماء والخبراء الذين يعملون في مختلف التخصصات، وفقاً لأكاديمية البحث العلمي هكذا: أحد عشر ألفاً (11000) في تخصصات نادرة، وأربعة وتسعون (94) عالماً في الهندسة النووية، وستة وثلاثون (36) في الطبيعة الذرية، وثمانية وتسعون (98) في الأحياء الدقيقة، ومائة وثلاثة وتسعون (193) في الإلكترونيات والحاسبات والاتصالات. وتحظى الولايات المتحدة بالنصيب الأكبر من الكفاءات والعقول المصرية بنسبة تسعة وثلاثين بالمائة (39%)، تليها كندا بنسبة أربعة عشر بالمائة (14%)، وأسبانيا في المؤخرة بنسبة أثنين بالمائة (2 %)

- تشير دراسة قامت بها كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة إلى وجود أربعة آلاف ومائة واثنين (4102) عالم غربي إسلامي متخصصين في شتى علوم المعرفة في مؤسسات ومراكز بحوث غربية.

وتتضمن الأرقام السابقة مهناً وتخصصات مختلفة، وتتضح خطورتها في أن العديد من الفئات العربية الإسلامية المهاجرة يعملون في أهم التخصصات الاستراتيجية والحرجة مثل الطب النووي والعلاج بالإشعاع والجراحات الدقيقة، والهندسة النووية والوراثية والإلكترونية والميكروإلكترونية، وعلم تكنولوجيا الأنسجة والفيزياء النووية، وعلوم الليزر، والفضاء، والميكروبيولوجيا والعلوم الإنسانية والاقتصادية والعلاقات الدولية"[1].

فالتخلف الذي تعاني منه أمتنا ليس سببه عدم وجود كفاءات وإنما العجز والتخلف نابع من عدم تقدير تلك الكفاءات وتوظيفها في أوطانها بينما تجد غير المسلمين يقدرها ويحترمها ويتسفيد منها.

[1])- المعطيات الحضارية لهجرة الكفاءات، مجموعة من المؤلفين ،كتاب الأمة العدد(156) عدد رجب 1434هـ ، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية – وزارة الأوقاف القطرية.

والمتأمل في السيرة النبوية يجد النبي صلى الله عليه وسلم يقف على إمكانات وقدرات صحابته، ثم يشيد بها ن ويلفت الأنظار إليها، ويمدح أصحابها، ثم يوظف تلك الطاقات بناء على معرفة جيدة بأقدار أصحابها والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

- تعيين أسامة بن زيد وهو شاب حدث على رأس جيش بعث لمقاتلة الروم وقصته مشهورة في السيرة، وقرار مثل هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد أن جهدا تم في إعداد هذا الشاب إعدادا قياديا وفنيا، ثم رصد لمدى كفاءته، ثم توظيف لتكل الكفاءة على الرغم من حداثة سنه ووجود الكثير من الصحابة الكبار تحت إمرته.

- سبق القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم وجه أصحابه للاستفادة من تخصصات علمية وكفاءات فكرية موجودة بينهم، فقال :" من أراد أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد".

- الإشادة بتخصصات الصحابة ومنزلتهم العلمية ففي علم "الفرائض" نبه النبي صلى الله عليه وسلم بالأخذ عن زيد لأنه أفرض الأمة، وفي الفتوى "معاذ بن جبل" باعتباره الأعلم بالحلال والحرام، وهذا أمين الأمة ، وفلان حواري رسول الله وهكذا.

- التوظيف الفني لأصحاب المهارات والفنون كتعيينه صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد قائدا عسكريا ومنحه لقب "سيف الله المسلول"، وقوله:" لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله وأعطاها عليا" كما في البخاري ومسلم.

- ثم هو صلى الله عليه وسلم يستفيد من طاقة الشباب فيأمر زيد بن ثابت بتعلم اللغات الأجنبية، فيتعلم العبرية والسريانية في أقل من شهر، ليقوم بترجمة الرسائل التي تأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- ويمنع أبا ذر من طلب الإمارة باعتباره ليس كفؤا لذلك على الرغم من فضله وسبقه.

وهكذا يبدو لنا المشهد النبوي وهو يوظف طاقات الأمة فيختار رسله بناء على الوجاهة والكفاءة والفصاحة والدراية، ويختار مبعوثيه بعناية، ويوظف المتخصصين كل فيما يحسن، فتحقق النهوض الحضاري على أحسن صورة.

المطلب الرابع : التخطيط الاستراتيجي

كان من الممكن أن يعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في منهجيته على الخوارق وعلى كلمة "كن" القدرية، لكنه صلى الله عليه وسلم علم الأمة وهي تتحرك في مسيرتها الحضارية أن هذا الدين لا يقوم إلا بجهود البشر وأعمال المكلفين،فكان التخطيط بكل ألوانه وأنواعه ماثلا وحاضرا في حركة السيرة النبوية وبخاصة التخطيط الاستراتيجي بعيد الأمد، وهذا التخطيط الاستراتيجي كان قائما على استشراف مستقبلي قوامه خبرة عميقة وبصيرة نافذة ورؤية واضحة للغايات والأهداف المرحلية والبعيدة، ويتجلى ذلك في مواقف كثيرة أذكر منها:

- **الهجرة إلى الحبشة** : كانت جزءا من الخطة الاستراتيجية لحماية الدعوة بحيث إذا تعرضت للاستئصال في مكة كان لها رصيد استراتيجي من الدعاة المتميزين يواصلون الطريق، واستقر هؤلاء في الحبشة مدة طويلة حتى عادوا عام خيبر بعد أن تأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمر المسلمين في المدينة قد استقر وتمكنوا تمكنا كبيرا بعد غزوات كادت تعصف بالمسلمين وبالمدينة المنورة، كمصيبة أحد وهجوم الأحزاب ومؤامرات اليهود كل هذه المنعطفات كان الاحتمال معها قائما باستئصال المسلمين إلى أن أذن الله تعالى بإجلاء اليهود من المدينة واحتواء بعض القبائل من خارجها وهزيمة المشركين الأمر الذي تحقق به تمكين المؤمنين وانطلاقتهم الكبرى حينئذ أذن لهؤلاء الدعاة في الحضور من الحبشة إلى المدينة.

- **الاستفادة من القوانين الوضعية ما لم تصادم الحق** : من التخطيط عدم الاصطدام بالواقع كله فرسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أمرين **أولهما** : أنه ليس كل ما في الواقع سلبيا تجب محاربته، و**ثانيهما**: أن محاربة الواقع كله أمر فوق الطاقة، فالتخطيط يقتضي التمييز، لتوضع خطة محاربة ما تجب محاربته في الواقع وفق الطاقة والامكانات، والاستفادة من الصحيح المفيد في هذا الواقع، وقد استفاد النبي صلى الله عليه وسلم من بعض قوانين وضعها الناس في نصرة الحق وحماية الدعوة منها قانون (الجوار) وقانون (الأحلاف) يظهر ذلك في مواقف منها دخوله بعد عودته من رحلة الطائف في جوار المطعم بن عدي، ودخوله في حلف مع خزاعة وغيرها من القبائل، وغير ذلك من المواقف التي تبرز لنا كيف استفاد صلى الله عليه وسلم من القوانين الوضعية التي لا تصادم الحق.

- **بناء قاعدة إسلامية مبكرة في المدينة لاستقبال المسلمين المهاجرين:** وذلك في بيعة العقبة الثانية حيث آمن العشرات من الأوس والخزرج ورجوعهم دون علم قريش إلى المدينة المنورة قبل الهجرة ليكونوا قاعدة ونواة للدولة الإسلامية التي ستقوم في المدينة بعد الهجرة، حتى يجد صلى الله عليه وسلم أرضا مهيأة لهجرته هو وأصحابه.

- **تصفية مراكز القوى وقيادات الكفر التي كانت محركة للفتن والانقلابات** وكانت بمثابة الرؤوس التي لا يمكن استقرار الدعوة والحركة مع وجودها، مثال ذلك الأمر باغتيال كعب بن الأشرف وغيره ، وإجلاء بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير من المدينة.

المطلب الخامس :أخلاقية المشروع

يمتاز المشروع الحضاري الإسلامي بعنصر "الأخلاقية" فالأخلاق إحدى شعب الإسلام الأربع وهي إحدى سمات المشروع الحضاري الإسلامي بين الحضارات البشرية التي أهدرت القيم وحاربت الأخلاق، ومتى خلت الحضارة من "الأخلاق" كانت دمارا لا تحضرا، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في منهجية بناء الأمة يؤسس لهذا المعنى ويكفي أن نذكر هذا الحديث كدليل على أخلاقية المشروع الحضاري الإسلامي عَنْ أَبِيهِ بُرَيْدَةَ ، قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَمَرَهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ مَعَهُ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ " : اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، لِتَغْزُوا وَلا تَغْلُوا وَلا تَغْدُرُوا وَلا تُمَثِّلُوا وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ، فَإِذَا أَنْتَ لَقِيتَ عَدُوًّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلاثِ خِلالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهِ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَاكْفُفْ عَنْهُمْ، وَادْعُهُمْ إِلَى الدُّخُولِ فِي الإِسْلامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ إِلَيْهِ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَاكْفُفْ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْهِجْرَةِ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ دَخَلُوا فِي الإِسْلامِ وَاخْتَارُوا دَارَ أَعْرَابِيَّتِهِمْ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ، وَلا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَاكْفُفْ عَنْهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَادْعُوهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ، فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَاكْفُفْ عَنْهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَى قِتَالِهِمْ، فَإِذَا أَنْتَ حَاصَرْتَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَأَهْلَ الْحِصْنِ فَسَأَلُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَلا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَإِنَّكَ لا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لا، وَإِذَا أَنْتَ حَاصَرْتَ أَهْلَ الْحِصْنِ أَوْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ،

فَلا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ وَذِمَمَ آبَائِكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِنْ أَخْفَرْتُمُ ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةُ آبَائِكُمْ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. "

وعند أبي داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشًا قال: «انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخاً فانيًا، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين".

وأخرج البيهقيُّ بسنده عن أبى عمران الجوني: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعث يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه إلى الشام فمشى معه يشيعه؛ فقال له يزيد: إنى أكره أن تكون ماشيًا وأنا راكب .
فقال الصديق: إنك خرجت غازيًا فى سبيل الله وإنى أحتسب فى مشيي هذا معك.ثم أوصاه الصديق فقال :

لا تقتلوا صبياً ولا امرأة ولا شيخاً كبيرًا ولا مريضًا ولا راهبًا ولا تقطعوا مثمرًا ولا تخربوا عامرًا ولا تذبحوا بعيرًا ولا بقرة إلا لمأكل ولا تغرقوا نحلاً ولا تحرقوه .
إن الأخلاقية من أبرز مقومات البقاء الحضاري والحيوية، لفتت أنظار الناس وألانت قلوب المعاندين، وكانت أكبر مثال على صدق الرسالة ونزاهة دعاتها، فكان الإسلام منهاج حضارة إنسانية حققت مصالح الخلق ليس الإنسان فقط وإنما الخلق أجمعين لأن الله تعالى وصف رسوله بأنه :"رحمة للعالمين".

إن الجانب الأخلاقي لابد وأن ينال عناية خاصة في العملية التربوية لكل حركة نهضة وتغيير في الأمة اليوم ، والأمة اليوم مع تخلفها في مجال الإنجاز المادي في الجانب الحضاري يمكنها أن تقدم للبشرية اليوم أعظم عنصر في التقدم الحضاري وهو العنصر "الروحي والأخلاقي" الذي خلت منه حضارة العصر.

المطلب السادس : مراعاة المنهج السنني

من نواقص الدراسات العلمية حول السيرة النبوية أهمال البعد السنني في تلك الدراسات، مع أن النموذج الأعلى في مراعاة السنن الإلهية الكونية في الأمم والجماعات والأفراد هو ذلك التطبيق النبوي للقرآن الكريم في إنشاء دورة إسلامية حضارية تاريخية، إن مراعاة السنن الإلهية التي تحكم الكون بصرامة دون تحيز أو محاباة، وتسخير هذه السنن والاستفادة منها والاستعانة بعضها على بعض من أهم مقومات البناء الحضاري، هذا ما يلحظه دارس السيرة وهو

يرصد قوانين ومناهج التغيير التي اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم في بناء الأمة وتشييد الحضارة الإسلامية العالمية، فقد حقق النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عمليا، واستدل على ذلك بكيفية التعامل السنني في البناء الحضاري النبوي من كيفيات خلال تعامله صلى الله عليه وسلم مع بعض تلك السنن:

- **التعامل مع سنة الابتلاء والتمحيص**: قال الله تعالى :"ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون" نص واضح في أن من سنن الله تعالى في الدعوات الابتلاء، وهو منعطف خطير في مسيرة التغيير والبناء الحضاري يستوجب نظرة دقيقة في التعامل معه باعتباره سنة تقتضي الثبات والمقاومة والتضحية واستشراف الأجر والرغبة فيما عند الله وإغاظة الكفار، ففهم حقيقة الابتلاء والتمحيص كسنة كونية لله تعالى في مسيرة الدعاة والمصلحين يرسم الطريق واضحا أمام هؤلاء، وسوء إدارك هذه السنة يجعل المرء في حالة ضجر وسخط أو استسلام وخنوع أو انسحاب وانزواء، كان النبي يوصي أصحابه بالصبر، ويعدهم بالأجر، ويحذرهم من التعجل واستبطاء النصر، فكان ينتقل من محنة إلى أخري ليخرج وأصحابه منها أصلب عودا وأنقى معدنا، وبهذا استمر العطاء الدعوي من ثلة مؤمنة حملت رسالة الهداية وسط أعاصير الابتلاء وأتون المحن وهي في غاية الرضا بالقضاء الرباني في مسيرتها، لا تضجر ولا تتوقف ولا تستسلم.

- **التعامل مع سنة المداولة والتغيير**: علم النبي صلى الله عليه وسلم أن يحمل رسالة عالمية ومعنى ذلك أنه مقدم على عملية تغيير كبرى للمفاهيم والتصورات، والقيم والأخلاق، والأمم والجماعات، إن العالمية الإسلامية تقتضي تغيير أنظمة حكم والإطاحة بقيادات ومناهج لتحدث سنة الله في التداول "وتلك الأيام نداولها بين الناس" وهذا يقتضي إعدادا نفسيا وماديا خاصا للأمة التي تقوم به ، فكانت الخطة الاستراتيجية للوصول نحو الهدف، وكان العمل على مستوى الإنسان بدءا من الفرد مروا بالأسرة وانتهاء إلى الهيكل الأعلى للدولة، وعلى مستوي البنيان كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤسس لحضارة تنهض بالشرية على مستوى المادة لتحقيق استقرار يؤهلها لعبادة الله تعالى:"فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وبمنهم من خوف"، ثم كيف زحفت الدعوة بدعاتها وجيوشها ورسائلها لتسقط أنظمة الجاهلية ورموزها ودساتيرها وتقتلعها من حصونها لترسي محلها عقيدة جديدة مع أمة جديدة، كل ذلك وفق رؤية واضحة تدرك سنة المداولة وتحسن التعاطي معها.

- **سنة المدافعة والصراع**: تقوم الحياة على الخير والشر والحق والباطل، وبين هذا وذلك صراع قديم وممتد إلى قيام الساعة، فهي سنة إلهية جارية حاكمة، ولن يتحقق النصر لأحدهما لمجرد أن أهله أصحاب حق أو أصحاب باطل وإنما لكون هذا الفريق أو ذاك أدرك هذه السنة الخطيرة وأخذا بالأسباب اللازمة للتعامل معها، وقد كان المنهج النبوي في أعلى صور الإعداد والاستعداد للتعامل مع سنة المدافعة والصراع، فراعى واقع أصحابه في مكة لما بدأ التدافع بين فريق أهل الحق وفريق أهل الباطل، فكان الصبر وكف الأيدي شعار المرحلة، واعتبر ذلك نوع جهاد أمر القرآن وأشاد بأصحابه:"فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا" واستمر العمل والتدافع الحضاري الدعوي والسلمي في تحركات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين القبائل في منى ومن قبلها إلى الطائف، ثم لما غدت مكة غير مهيأة لقيام الإسلام كمستقر آمن اقتضت حكمته صلى الله عليه وسلم أن يبحث عن موطن لدعوته تقوم فيه دولة تحمي الدعوة ومنجزاتها البشرية والحضارية فكانت المرحلة الجديدة من مرحلة التدافع تمثلت في الهجرة إلى المدينة وما ترتب عليها من صراع بين اليهود ومشركي المدينة من الداخل وبين قريش وقبائل العرب من الخارج، وفي وسط هذا الحراك أدار الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الأمور وفق فهم سنني لمسالة المدافعة والصراع بكل كفاءة وجدارة .

المطلب السابع :استكمال عناصر القوة

إن الرؤية الصحيحة للبناء الحضاري تؤكد أن الحق المجرد لا ينتصر ما لم يكن مؤيدا بقوة رادعة، ولذا قال الله تعالى :"وأعدوا لهم ما اسطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم"، يقول الشيخ حسن البنا في ذلك :" أما القوة فشعار الإسلام في كل نظمه و تشريعاته ، فالقرآن الكريم ينادي في وضوح و جلاء: . (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ) (لأنفال:60).و النبي يقول (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف) ، بل إن القوة شعار الإسلام حتى في الدعاء و هو مظهر الخشوع و المسكنة ، واسمع ما كان يدعو به النبي في خاصة نفسه و يعلمه أصحابه و يناجي به ربه : (اللّهُمّ إِنّي أَعوذُ بِكَ مِنَ الْهَمّ وَالْحَزَنِ، وَأَعوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأعوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ والْبُخْلِ وَأعوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدّيْنِ وَقَهْرِ الرّجَال)، ألا ترى في هذه الأدعية أنه قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف : ضعف الإرادة بالهم و الحزن، و ضعف الإنتاج بالعجز و الكسل ، و ضعف الجيب و المال

بالجبن و البخل ، و ضعف العزة و الكرامة بالدين و القهر ؟ .. فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدين إلا أن يكون قويا في كل شيء ، شعاره القوة في كل شيء ؟"(1)

لقد كانت الرؤية الثاقبة الدقيقة لمفهوم القوة في البناء الحضارى لدى النبي صلى الله عليه وسلم توجب أن يبدأ في بناء القوة العقائدية لدى أفراد هذه الأمة، حتى كانت المرحلة المكية كلها صناعة للإنسان صاحب العقيدة والرسالة، ثم كان العنصر الثاني من عناصر القوة وهي قوة الإخاء المتمثل في النموذج الفريد الذي ذكره القرآن في قوله تعالى:" لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ، وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "**(2).**

ثم اقتضى الحال لحماية المنجز الدعوي والحضاري أن تكون لدى الأمة قوة السلاح فكانت تلك العناصر المجاهدة التي خاضت غمار الحروب والغزوات في سبيل الله ترهب أعداء الله.

وبهذه الثلاثية في معنى القوة تمت حماية الأمة ومنزاتها الحضارية، وحققت إرهاب الأعداء الذي يحقق السلام في ذات الوقت، لأن ضعف الأمة يغري أعداءها بالاعتداء عليها ونهب مقدراتها وسفك دمائها فتدور الحروب وتزهق الأرواح ويذهب السلام.

المطلب الثامن :التحضر والمدنية

سلك النبي صلى الله عليه وسلم من خلال حياته المباركة مسلك التحضر والمدنية، وأنقذ البشر من شر البداوة وجفائها وقسوتها، وهذا بعد ينبغي التنبيه إليه كمَعلم من معالم بناء الحضارة زمن النبي صلى الله عليه وسلم" وقديظن البعض أن البداوة كانت سمة الدولة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وربما ذهب الخيال بآخرين إلى أن الحياة المدنية المتحضرة أمر طارئ على المسلمين عرفوه من دول مجاورة لهم هنا أو هناك، وهذا تصور غير علمي يجافي للحقيقة ويخالف الواقع، ربما كان منشؤه قصور في الاطلاع على تفاصيل الحياة الإسلامية الأولى في الدولة الإسلامية في عهد

[1] – مجموعة رسائل الأستاذ حسن البنا ، رسالة المؤتمر الخامس (ص145) مصدر سابق.

[2] – سورة الحشر ،الآية(9،8).

النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم وعدم الوقوف على المصادر التي تناولت ذلك"(1) ولذا قال الكتاني في التراتيب الإدارية: "إن الذين اعتنوا بتدوين المدنية العربية والتراتيب الإدارية لخلفاء المملكة الإسلامية وذكروا ما كان لأمراء الإسلام على عهد الدولة الأموية والخلافة العباسية من الرتب والوظائف والعمالات والعمال أهملوا ما كان من ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه عليه السلام حيث كان يشغل منصب النبوة الديني علي قاعدة جمع دينه القويم بين سياسة الدين والدنيا جمعا مزج بين السلطتين بحيث كادا أن يدخلا تحت مسمى واحد وهو الدين."(2). وهذا مفهوم ينبغي تصحيحه في عقول الكثيرين من المسلمين وبخاصة المثقفين الذين غابت عنهم معالم المدنية والحضارة في الدولة النبوية ولم يروا إلا جملة الشعائر والشرائع الإسلامية، ظانين أن الإسلام دين غير متحضر ولا متمدن وقد نبه الكتاني إلى خطأ مسلك هؤلاء قائلا:" الذين يتعاطون السير اليوم غاية ما يقرءون من كتبها الهمزية بشرحها لبنيس(3)، فلذلك لا يستغرب أن يشذ عن أبصارهم أمثال هذه الوظائف والمراتب والإدارات، وربما استبعد ذلك آخرون من حيث إن الكتّاب الذين تصدروا أخيرا للبحث في المدنية الإسلامية العربية ودونوا فيها المدونات العدة من المسلمين والمسيحيين غاية ما ينسبون من التمدن للإسلام يذكرون ما وجد على عهد الدولة العباسية والأموية مثلا مع ما أوجدته بعد ذلك ممالك العجم والديلم(4) والترك والفرس والبربر وغيرهم من ملوك الدول الإسلامية بالشرق والغرب بل وربما كانوا يأتون بنسبة المدنية في الإسلام لبني العباس ليتسني لهم بعد التصريح بأنهم أخذوا ذلك عن اليونان والفرس لا عن القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم"(5).

فإقامة الحياة بكل متطلباتها ومقوماتها على أبدع صورة كان جزءا من المنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري وقد أحصيت في كتاب "التراتيب الإدارية" للكتاني جملة من المهن والصناعات والأعمال والوظائف التي تدل على مدى

---

[1] – من معالم الحضارة والمدنية في الدولة النبوية قراءة في فكر السيد عبد الحي الكتاني من خلال كتابه التراتيب الإدارية، للباحث، بحث تحت النشر مقدم للنشر بمجلة وحدة الامة – ديوبند – الهند .

(2) الكتاني، عبدالحي،**التراتيب الإدارية، (11/1)**.

(3) قال الزركلي في الأعلام : محمد بنيس (1160 – 1213 هـ = 1747 – 1798 م) محمد بن أحمد بن محمد بنيس، أبو عبد الله: فرضي، له علم بالأدب من أهل فاس من كتبه (لوامع أنوار الكوكب الدري – ط) في شرح همزية البوصيري.

انظر/ الزركلي، خير الدين، **الأعلام، ج1ص15**.

(4) بلاد الديلم هي : بأرض الجبال بقرب قزوين، وهي بلاد كلها جبال ووهاد، وفيها خلق كثير من الديلم، وهم أشد الناس حمقاً وجهلاً ! بينهم قتال فإذا قتل واحد منهم قتلوا من تلك القبيلة أي واحد كان. وكانوا ملوك بلاد الجبال قديماً. ذكر أن أصلهم من بني تميم، ولذلك ترى أكثرهم يميلون إلى الأدب والعربية. منهم ملوك آل بويه وكانوا كلهم فضلاء أدباء.(آثار البلاد وأخبار العباد (132/1).

(5) الكتاني، عبدالحي،**التراتيب الإدارية، (11/1–12)**.

تحضر الدولة النبوية التي أقامها النبي صلى الله عليه وسلم فوجدتها كثيرة وهي في جملتها دالة على مدى التحضر والمدنية للدولة الإسلامية .

وفي الجدول التالي بيان لأبرز الوظائف والأعمال المدنية والأنشطة العمرانية والأوجه الحضارية للدولة النبوية في المجالات المختلفة:

م	المجال	العمل أو الوظيفة
1	الديني	معلم القرآن – معلم الكتابة – المفتي – العابر للرؤى – إمام الصلاة المؤذن – الموقت – المسرج والمجمر – عامل المسجد – الساقي- إمارة الحج – حجابة البيت – السقاية – وغير ذلك من الأعمال والوظائف.
2	السياسي	الوزير – صاحب السر – الحاجب والآذن والبواب – الخادم – صاحب الوساد والنعلين – الإمارة العامة على النواحي – الرسل والسفراء- والمخابرات .
3	العمليات الكتابية والعلمية	كاتب الوحي –كاتب الرسائل والإقطاع-كاتب العهود والصلح – حامل الكتاب والرسائل –الترجمان – الشاعر – الخطيب –كاتب الجيش – العرفاء – المنادي – المحاسب –النقباء – الأوصياء – الأقلام القصبية – القلم والدواة – (الكاغد) الورق- كتابة التقارير الجغرافية – ترجمة الكتب العمرانية القديمة من الطب والصناعات –علم الخط – علم الأنساب – تعطي الشعر- علم الفرائض- علم الرماية والسباحة- الإملاء- وغير ذلك من العلوم والأعمال والوظائف.
4	العمالات الأحكامية	الإمارة – القاضي – صاحب المظالم – قاضي المناكح – الشاهد وكاتب الشروط – فارض المواريث – فارض النفقات – الوكيل المالي – الخبير في أمور البناء – القسام- المحتسب – صاحب العسس – الحراسة – السجان – مقيم الحدود – ولاية المظالم وغير ذلك الكثير.

5	الجانب الحربي والعسكري	أمير الغزو –القائد – نائب الإمام إذا خرج إلى الغزو– حامل اللواء – المقدم على الرماة ومثله على الرجالة – صاحب المقدمة ومثله الميمنة ومثله الميسرة – وصاحي الساقة – الوازع – صاحب الخيل – المسرج – الدليل – مسهل الطريق – الحارس – المتجسس – المخذل – صانع السفن – صانع المنجنيق – –الرامي به – قاطع الشجر – صاحب المغانم ومثله الخمس – أمير الرماة – طلائع الجيش – وغير ذلك.
6	الجانب الصحي والطبي	المارستان – الطبيب – الراقي – القاطع للعروق– الكواء –القافي – وغيرها.
7	جانب الحرف والصناعات والمهن والفنون والرياضات	النساج – البزاز – العطار– العراف –بائع الرماح –بائع الطعام والثمار– الدباغ –الدلال – الخياط – النجار –ناحت الأقداح – الصواغ – البناء – الحداد – الخراط – الصيد في البحر والبر – عامل الحوائط – السقاء بالأجر –الحمال – الحجام – الجزار –الطباخ – الماشطة – القابلة – الخافضة – المرضعة – المغني –حافر القبور– غاسل الموتى – الجلاب – المصور – الصباغ – السباح – صانعة الحريرة –بائعة اللبن –الخباز– الغزل – المغنيات – الموسيقى – المسابقة –المصارعة – الرماية – لعب البنات –التمريض – بائع السيوف

إن دراسة السيرة النبوية بصورة شمولية تكاملية لتعطينا هذا البعد المنهجي في منهجية إقامة الأمة والحضارة على السواء.

المطلب التاسع : الحماية الأمة والدعوة

لا ينبغي التوقف عند مجرد البناء والإنجار والتفاخر بذلك بل لا بد من اليقظة في حماية هذا البناء وذلك الإنجاز،البناء على صعوبته، والإنجاز على أهميته يتطلب حماية وحراسة من مخاطر داخلية وخارجية، وقد أسهمت العناصر السابقة من معالم المنهج النبوي في تحقيق الحماية، فعنصر التخطيط الاستراتيجي منع من الوقوع من أزمات غير متوقعة ومهد الطريق أمام الدعوة لاستمرار عطائها، وعنصر القوة حقق للأمة حماية من خطر تهديدات الداخل (المنافقين) والخارج (المشركين ومن والاهم)، وقد تحققت الحماية بمجموعة من التصرفات والتارتيب النبوية الحكيمة منهها على سبيل المثال:

- الهجرة إلى الحبشة.
- ترسيخ مفاهيم (الأخوة –الولاء –المواطنة).
- الهجرة إلى المينة وإقامة الدولة تحمي أفرادها وتنشر رسالتها.
- الجهاز الاستخباراتي القوي.
- التخطيط الجيد.
- وثيقة المدينة وما تضمنته من بنود تحمي الأمة من الداخل والخارج.
- الجهاد .
- بناء منظومة اجتماعية قوية.

ولكل عمل من هذه الأعمال تفاصيل وأبعاد لا يسعنا تفصيله في مقام البحث الوجيز الذي زادت أوراقه عن المطلوب في هذا المؤتمر المبارك.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم وأعز وأحكم .

د أحمد محمد زايد -جامعة قطر – كلية الشريعة.

الفهرس

المقدمة

المبحث الأول: دراسة السيرة النبوية لماذا وكيف؟

المطلب الأول: لماذا دراسة السيرة النبوية؟

المطلب الثاني: دراسة السيرة بين مناهج مختلفة؟

المطلب الثالث : المنهج المنشود في دراسة السيرة النبوية:

المبحث الثاني : معالم المنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري

المطلب الأول: العناية بالإنسان.

المطلب الثاني : تأسيس الهوية وترسيخ القيم.

المطلب الثالث: توظيف طاقات الأمة.

المطلب الرابع : التخطيط الاستراتيجي.

المطلب الخامس :أخلاقية المشروع الإسلامي.

المطلب السادس : مراعاة المنهج السنني .

المطلب السابع :استكمال عناصر القوة.

المطلب الثامن :التحضر والمدنية .

المطلب التاسع : الحماية الأمة والدعوة.

الفهرس

المصادر

أبرز المصادر

1. الأعلام خير الدين الزركلي، بيروت – دار صادر.
2. السيرة النبوية لابن هشام- القاهرة – دار الحرمين – بدون.
3. السيرة النبوية مشروعا حضاريا ، عماد الدين خليل مقال منشور بمجلة حراء – العدد 3 – إبريل – يونيو 2006م .

4. السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون المستشرق ترجمة محمد عبد العظيم علي ، نقد وتحقيق وتصويب/ عبد المتعال الجبري (الاسكندرية : دار الدعوة ، ط1414،1هـ -1994م).
5. الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض اليحصبي - ط دار الفكر – بيروت ،1423هـ- 2002م.
6. فقه السيرة، محمد سعيد البوطي ، دمشق ،ط السابعة، 1977م
7. مجموعة رسائل الإمام حسن البنان رسالة التعاليم ، – ط 1- الإسكندرية- دار الدعوة– بدون.
8. مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين د/ أكرم ضياء العمري -كتاب الأكتروني على الشبكة العنكبوتية -الإنترنت.
9. معالم في الطريق، سيد قطب– القاهرة - ط دار الشروق.
10. المعطيات الحضارية لهجرة الكفاءات، مجموعة من المؤلفين ، كتاب الأمة العدد عدد رجب 1434هـ ، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - وزارة الأوقاف القطرية.
11. مقاصد الشريعة الإسلامي لمحمد الطاهر بن عاشور - تقديم /حاتم بوسمنة (بيروت – دار الكتاب اللبناني – 2011م)
12. مقدمة ابن خلدون - الاسكندرية ، ط دار ابن خلدون ، بدون.
13. من معالم الحضارة والمدنية في الدولة النبوية قراءة في فكر السيد عبد الحي الكتاني من خلال كتابه التراتيب الإدارية، للباحث، بحث تحت النشر مقدم للنشر بمجلة وحدة الامة – ديوبند - الهند .
14. منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها في المرحلة المكية ، الطيب برغوث - (الكتاب رقم 17) من سلسلة قضايا الفكر الإسلامي – إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،ط1- 1416،1هـ -1996م.

الفهرس